

الباب الاول

العصر الجاهلي

الفصل الاول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية. انشعبت هي وهن من أرومة واحدة نبتت في أرض واحدة. فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة.

ويقال إن أحبار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسيطة، ولكن علماء المشرقيات من الأوروبيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إبهام فيها ولا شك.

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية. فالآرامية أصل الكلدانية والأشورية والسريانية، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية، والعربية تشمل المصيرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة. والراجح في الرأي أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم، لأنها بأنعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعاً لأحوال العمران.

وليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء. والنصوص الحجرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء؛ وحدث هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال، ومن كثرة الحل والترحال، وتأثير الخلطة والاعتزال، اضطراب في اللغة كالترادف، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب، وهنات المنطق

كعجمجة^(١) قُضَاعَة، وطمطمانيّة^(٢) حَمِير، وفحفحة^(٣) هذيل، وعننة^(٤) تميم، وكشكشة^(٥) أسد، وقُطْعَة^(٦) طيء، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها.

ولغات العرب على تعددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين: لغة الشمال ولغة الجنوب. وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف، حتى قال أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا». على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى، فإن القحطانيين جلاوا عن ديارهم بعد سيل العرم - وقد حدث عام ٤٤٧ م كما حققه غلازر الألماني - وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة، وبما كانوا عليه من رقي، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن. فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرب بين اللغتين في الألفاظ، ويجانس بين اللهجتين في المنطق، دون أن تتغلب إحداهما على الأخرى، لقوة القحطانيين من جهة، ولاعتصام العدنانيين بالصحراء من جهة أخرى. وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد، فأخذت دولة الحميريين تزول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلط الفرس عليه طوراً آخر. وكان العدنانيون حينئذ على نقيض هؤلاء تنهياً لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال، بفضل الأسواق والحج، ومنافستهم للحميريين والفرس، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل المتقدمة على محو اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية، فاندثرت لغة حمير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم.

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب، وإنما استطاعت كذلك أن تبرا مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداءة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها:

- (١) العجمجة: وهي قلب الياء جيماً بعد العين وبعد الياء المشددة، مثل: راعي يقولون فيها: راعج. وفي كرسى كرسج.
- (٢) الطمطمانية: هي جعل أم بدل أل في التعريف، فيقولون في البر: أمير، وفي الصيام أمصيام.
- (٣) الفحفحة: هي جعل الحاء عيناً، مثل: أحل إليه فيقولون أعل إليه.
- (٤) العننة: هي إبدال العين في الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة، فيقولون في أمان: عمان.
- (٥) الكشكشة: جعل الكاف شيئاً مثل: عليك فيقولونها: عليش.
- (٦) القطعة: هي حذف آخر الكلمة، مثل قولهم: يا أبا الحسن، تصيح: يا أبا الحسا.

١ - الأسواق: وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتسوق ويتنقلون من بعضها إلى بعض، فندعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأي، والمباדה بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه، وطمعاً في تكثير مشاييعه. والرواة من ورائه يطرون شعره هم القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته.

وأشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز. وأولاهن أشهر فضلاً وأقوى أثراً في تهذيب العربية. كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه، فنصد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج. وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج، لأنها متوجههم إلى الحج، ولأنها تقام في الأشهر الحرم، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها. وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضع بيانه وفصح لسانه.

٢ - أثر مكة وعمل قريش: كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التاجر من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر. وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وغيرهم الدثر آمنين، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم، وقوة في الفهم، وثروة في المال، وخبرة بأمر الحياة؛ وهي مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالاً وعلف كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشترؤا مرافقهم مما تنتجه أوتجلبه. ذلك إلى أن قريشاً أهلها وأمراءها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج، ورياستهم في عكاظ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران أشد الناس بالقبائل ارتباطاً، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً. كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب، وبالفرس في الشرق، وبالروم في الشمال. ثم كانوا على أثار من العلم بالكتب المنزلة: باليهودية في يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة؛ فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر. ثم سمعوا المناطق المختلفة، وتدبروا المعاني الجديدة، ونقلوا الألفاظ المستحدثة، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات، فكانت أعذبها لفظاً، وأبلغها أسلوباً، وأوسعها مادة، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فآتم لها الذبوع والغلبة.

الفصل الثاني

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله. وهو نوعان: مسجّع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية، ومرسل إن كان غير ذلك. وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة، وفعل الوراثة، وقلة الاختلاط بالأعاجم. اللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة. ولم يُعن الرواة من منشورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص.

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسله بذاتها تنقل عن ردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير. وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية، كقولهم: وافق شَنْ طبقة. ولأمر ما جدع قَصِيرُ أنفه. ويداك أوكنا وفوك نفخ. وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها. وأشهر هؤلاء الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ، فقد جمع كتابه: [مجمع الأمثال] من نحو خمسين كتاباً، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم.

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو. وهي ثمرة الحُنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة، كقولهم: الخطأ زاد العجول. من سلك الجدد أمن العثار. عِي صامت خير من عِي ناطق.

والخطبة والوصية كلتاها يراد بها الترغيب فيما ينفع وعلما يضر، إلا أن الأولى تكون على ملأ من الناس في المجامع والمواسم. والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت.

مميزات النثر الجاهلي:

يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غُلُو. يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب،

قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحيُّ الفكرة. وربما تساوت فيه أَلْحَكم وأَطردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة.

الخطابة:

الخطابة كالشعر لِحَمَّتْها الخيال وسَدَّها البلاغة. وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية، وسبيل من سُبُل التأثير والإقناع. تحتاج إلى ذِلاقة اللسان ونِصاعة البيان، وأناقة اللهجة، وطلاقة البديهة. والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء، وأولو غيرة ونجدة. فكان لهم فيها القدم السابقة والْفِدْحُ المَعْلِي. وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها ونِجارها، والدُّود عن شرفها وذمارها، وإصلاح ذات البين بين الحيين، والسفارة بين رؤس القبائل وأقيالهم، أو بين الملوك وعمالهم. وكانوا يدرّبون فتيانهم عليها منذ الحداثة، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها، وشاعر يرفع ذكرها. وربما أجمع الصفتان في واحد.

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ، خلاب العبارة، واضح المنهج، قصير السجع، كثير الأمثال. وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور وأذيع.

ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة، ورفع اليد ووضعها، والاستعانة على العبارة بالإشارة، وأخذ المخاصر بأيديهم؛ والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها.

وكانوا يحبون أن يكون حسن الشارة، جهير الصوت، سليم المنطق، ثبت الجنان. وأشهر خطبائهم في هذا العصر قس بن ساعدة الأيادي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، والحارث بن عباد البكري، وقيس بن زهير العبسي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وحسبنا أن نترجم لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر.

الخطباء

١ - قس بن ساعدة الإيادي

٢٢٠ ≈ ٦٠٠ م

٤٠٣ ق هـ ≈ ٢٣ ق هـ

حياته: هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكّمها. كان يؤمن بالله ويدعو

١ - انظر ترجمته في: النوادر: ص ٢٦٢، والمجبر: ص ١٣٦، ٢٣٨، وتاريخ الطبري: ٨٣٦/٢، =

إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال إنه أول من خطب على شرف، وأتكا على سيف، وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي ﷺ في عكاظ فأثنى عليه. ويروى أنه قال فيه: «رحم الله قساً! إنني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده». وكان يفد على قيصر من حين إلى حين فيكرمه. ولكنه صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة ٦٠٠ م، وقد عمّر طويلاً.

أسلوبه: إن صح ما أثر عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً، شديد الروعة، متخير اللفظ، قصير الفواصل. يعتمد فيه إلى ضرب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون. وله شعر يجمع إلى الجزالة رقة التعبير وقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه (١).

قال من خطبته في سوق عكاظ:

أيها الناس! اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.
ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهّر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض
مُدحاة، وأنهار مجراة. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً. ما بال الناس يذهبون
ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إباد، أين الآباء والأجداد، وأين
الفراغة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟ طحنهم الدهر بكلكله، ومزقهم
بتطاوله.

في الذاهبين الأولي	من من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ	ولا من الباقي غابر
أيقنت أنني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

ومن حكمه: مَنْ عَيْرِكَ شَيْئاً ففِيهِ مِثْلُهُ. ومن ظَلَمَكَ وَجَدَ مِنْ يَظْلِمُهُ. وإذا نهيت عن الشيء فأبدأ بنفسك. وكن عَفَّ العَيْلَةَ مشترك الغنى. ولا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً. ومن شعره قوله يرثي أخوين له وقد وقف على قبريهما بدير سمعان:

خليليُّ هُبا طالما قد رقدتما أجدُّ كما لا تقضيان كراكما!

= والأغاني ٢٤٦/١٥ - ٢٥٠، ومعجم الشعراء: ص ٣٣٨، ومجمع الأمثال: ٩٧/١، والأعلام للزركلي: ١٩٦/٥.

(١) قيل: إنه توفي وله من العمر ثلاثمائة وثمانون سنة.

ألم تعلمنا أني بسمعان مفردٌ
أقيم على قبري كما لست بارحاً
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما
فلو جُعِلت نفسٌ لنفس وقايةً
سأبكيكما طول الليالي وما الذي
ومالي فيه من حبيب سواكما؟
طَوَّال الليالي أويحيب صداكما
كأن الذي يسقي العقار سقاكما!
لجدتُ بنفسي أن تكون فداكما
يرد على ذي عولة إن بكاكما!

٢ - عمرو بن معد يكرب الزبيدي

٥٣٥ - ٦٤٣ م

٨٩ ق هـ - ٢١ هـ

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهي نسبه إلى قحطان ويكنى أباثور. لقي النبي ﷺ لدى منصرفه من تبوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلبا شاب في الجاهلية الجهلاء، وترع في الدماء والأشلاء، وأستهتر في اللهو والصهباء، لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق، فأرتد بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد في سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشرين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفي في أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣ م.

صفته ومزله: كان قوياً بديناً أكولاً، وكان سيداً مطاعاً وبطلاً شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد في الطبقة الثانية من الشعراء، وفي الأولى من الخطباء، ويغلب في شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سرة العرب إلى أنوشروان بالمداين ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه في العرب وأفتخاره بهم وتفضيله إياهم فألقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، وملاك النجعة الارتداد، وعبو الرأي خير من أستكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من أعتساف الحيرة. فأجتبذ طاعتنا بلفظك؛ وأكثظم بادرنا بحلمك، وألن لنا كنفك يَلن لك قيادنا. فإننا أناس لم يُوقَّص صفاتنا قِرَاع مناقير من أراد لنا قضمًا، ولكن منعنا جمانًا من كل من رام لنا هضمًا.

٢ - انظر ترجمته في: جمهرة النسب، ترتيب كاسكال: ١٧٨/٢، وطبقات ابن سعد: ٣٨٣/٥، والأغاني: ٢٠٨/١٥ - ٢٤٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٦، وسمط اللالي: ص ٦٤، والإصابة: ٣٣/٣ - ٣٩، وخزانة الأدب: ٤٢٥/١ - ٤٢٦، والأعلام للزركلي: ٢٦٠/٥ - ٢٦١. وانظر ما كتبه بلاشير في كتابه: تاريخ الأدب العربي: Blachère, Histoire 283-284، وما كتبه نالينو

في كتابه: تاريخ الآداب العربية: Nallino. Litt. ar. 76-77.

ومن شعره قوله في أبي المرادي وقد توعدته :

وأعاذل شكتي بدني ورمحي
وأعاذل إنما أفني شبابي
تمناني ليلقاني أبي
ولولا فتني ومعي سلاحي
أريد حياته ويريد قتلي!
وكلُّ مُقَلَّصٍ سلس القياد
وقرح عاتقي ثقل النجاد
وددت وأينما مني ودادي
تكشف شحم قلبك عن سواد
عذيرك من خليلك من مُراد!

وقوله :

ليس الجمال بمئزر
إن الجمال معادن
أعددت للحدثان سا
نهداً وذا شطَبٍ يقدِّ
كم من أخ لي صالح
ما إن جزعت ولا هلع
ذهب الذين أحبهم
فأعلم وإن ردبت بُردا
ومناقب أورثن مجدا
بغّة وعداء عُلندي!
البيض والأبدان قدا
بواته بيدي لحدا
ت ولا يرد بكاي رشدا
وبيقت مثل السيف فردا

نماذج من النثر الجاهلي

من الأمثال :

قالت العرب في أمثالها :
(إذا سلمت الجلة فالنَّيبُ هدرٌ) أي إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به .
(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدلِّ بنفسه إذا مُني بمن هو أدهى منه .
(إنك لا تجني من الشوك العنب) أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً .
(ذكرني فوك حماري أهلي) أصله أن رجلاً خرج يطلب حمارين ضللاً له ، فرأى امرأة فأعجبته ، فنسى الحمارين . فلما أسفرت عن وجهها رأى فيها قبيحاً فقال هذا المثل .
(تجشأ لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعي ما ليس يملك .
(رمتني بدائها وأنسلت) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به .
(ربّ كلمة تقول لصاحبها دعني) يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار .
(أسر حسواً في ارتغاء) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع إلى نفسه . وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن .
(أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل) . . أصله أن رجلاً أُعير على إبله فأخذت ، فلما تواری

المغبيرون بها صعد أكمةً وجعل يسبهم، ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل .
(أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟ . .) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .
(قد يحمل العير من دعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرؤع فحملة على
ما ليس من طبعه .

(قبل الرمي يُراش السهم . .) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله .

من الحكم :

ومن حكم العرب قولهم : مصارع الرجال تحت بروق الطمع . كَلِمَ اللسان أنكى من
كلم السنان . رب عَجلة تهب ريثاً . العتاب قبل العقاب . التوبة تغسل الحوبة . من سلك
الجدد أمن العثار . أول الحزم المشورة . رب قول أنفذ من صول . أنجز حرماً وعد . اترك
الشر يتركك . من ضاق صدره أتسع لسانه . يدك منك وإن كانت شلاء . رب ملوم لا ذنب
له . من مأمنه يؤتي الحذر .

الخطب :

قال هانيء بن قبيصة الشيباني لقومه يحرضهم، وهو يدلك على مذهب الجاهليين في
النثر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل :

يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناج فرور . إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن
الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره . الطعن في ثغر
النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور . يا آل بكر، قاتلوا فما من المنايا بد!

وخطب عبد المطلب عند سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الحبشة قال : وإن الله
تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً، وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته،
ونبل أصله، ويسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن فأنت أبيت اللعن رأس العرب
وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي
إليه تلجأ العباد . سلفك خير سلف، وأنت لنا بعده خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه،
ولن يخمل من أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك
الذي أبهجننا بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة، لا وفد المرزئة .

من الوصايا :

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال :

يا بني كبرت سني، وبلغت حرصاً من دهري، فأحكمتني التجارب، والأموال تجربة

وأختيار. فأحفظوا عني ما أقول وعوه. إياكم والهور عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء ظن بالرب وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا آبتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة. فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أن يصيبه.

وأوصت أعرابية ابتنها ليلة زفافها قالت:

أي بنية! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعوونة للعاقل. ولو أن امرأة أستغنت عن الزوج لغني أبويها، وشدة حاجتهما إليها، لكنت أغنى الناس.

أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العيش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفه، وقرين لم تألفه. فأحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً: أصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع والطاعة، وتعهدني موقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح، ثم أعرفي وقت طعامه، وأهدئي عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مبغضة. ثم أتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً، والاكثاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد الناس له إعظماً، يكن أشدهم لك إكراماً. وأعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت. والله يخير لك.

وأوصت أعرابية ولدها قالت:

أي بني! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما أعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهيى^(١) ما أشد من قوته. وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هزرت فأهز كريمةً يلن لهزتك، ولا تهزز لثيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فأعمل به، وما استقبحت من غيرك فأجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها. والغدر أقيح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ربطتها وسريالها^(٢).

(١) يهيى: أي: يضعف.

(٢) السريال: وهو القميص. كل ثوب رقيق يشبه الملحفة.

الفصل الثالث

الشعر

تعريفه وأوليته:

الشعر هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيـلة البديعة والصـور المؤثرة البليغة. وقد يكون نثراً كما يكون نظماً. والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع، وعدم احتياجه إلى رقى في العقل، أو تعمق في العلم، أو تقدم في المدنية. ولكن أوليته عند العرب مجهولة، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مُقصد. وليس مما يسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مناحيه. والمظنون أن العرب خَطوا من المرسل إلى السجع ومن السجع إلى الرجز، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد. فالسجع هو الطور الأول من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة، وتقيداً للحكمة، وتعمية للجواب، وفتنة للسامع. وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون، زعموا أنهم مهبط الإلهام، وأنبياء الآلهة، فكانوا يسترحمونها بالأناشيد، ويستلهمونها بالأدعية، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في حمل مقفاه موقعة أطلقوا عليها اسم السجع تشبيهاً لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة.

فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء، وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء، ومن الدعاء إلى الحداء، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز.

ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان، فكان للحماسة وزن، وللغزل وزن، وللهجج وزن، وهكذا إلى سائر الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً.

فأنت ترى أن الشعر مصدره الغناء، وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة، والرجز

من إيقاع مشي الناقه، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة أو التسبيحة، وقولهم إلى الآن: أنشد الشعر بمعنى ألقاه، ما يؤيد ذلك.

الشعر والعرب:

العرب أشعر الساميين فطرة، وأبلغهم على الشعر قدرة، لاتساع لغتهم للقول، وملاءمة بيئتهم للخيال، وصفاء قريحتهم، وسذاجة معيشتهم، وقوة عصبيتهم وكمال حريتهم، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل، ويعوق الذهن عن التفكير، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة. وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة، وطباع ناثرة، يستفزهـم الرغبـُ والرهبـُ، ويزدهيهم الطرب والغضب، فلم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا نظموه، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، وشاهد صوابهم وخطأهم، ومادة حوارهم وسمرهم. وكانوا كلهم يروونه، وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر حتى روى عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله فلا بدع إذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم. والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم، كحديث الأعشى مع المحلّق وحسان مع بني عبد المدان، والحطيئة مع بني أنف الناقه.

أنواع الشعر وأغراضه:

أنواع الشعر ثلاثة: شعر غنائي أو وجداني Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره. وشعر قصصي Eptique وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصة، كالألياذة والشاهنامة. وشعر تمثيلي Dramatique وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال. وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال. والغنائي أسبق هذه الأنواع إلى الظهور؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علمت. والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه.

ولما كان الشعر مادته الخيال، والخيال غذاؤه الحس؛ والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية، ولا يسمع من الأفاصيص إلا البطولة والحرب، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة، أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل، وتفنن ما شاء له الحب في التشبيب والغزل. فالشعر العربي غنائي محض، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه، والتعبير عن شعوره وحسه. والعواطف تشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة. ومن ثم نشأ فيه

التكرار، وتوارد الخواطر، والسرقه، ووحدة الأسلوب، وتشابه الأثر. وكان من الحق أن يقول زهير:

ما أَرانا نَقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً

أما الشعر القصصي والتمثيلي فلا أثر لهما فيه، لأن مزاولتهما تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال؛ وتطلب الإلمام بطبائع الناس، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم؛ وتفتقر إلى التحليل والتطوير، وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث. وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة، وحرمتهم طبيعة أرضهم، وبساطة دينهم، وضيق خيالهم، واعتقادهم بوحداية إلههم، كثرة الأساطير وهي من أغزر ينابيع الشعر القصصي، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة التي تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان، والإنياد للرومان ومهابهارته للهنود، والشاهنامة للفرس.

مميزات الشعر الجاهلي:

وعوثة الصحراء وخشونة العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمه ظاهرة. فمن خصائصه الصدق في تصوير العاطفة، وتمثيل الطبيعة، فلا تجد فيه كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء؛ فكثرت لذلك الإيجاز، وقل المجاز، وندرت المبالغة. وضعفت العناية بسياق الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع: فعلائق المعاني واهنة واهية، ومساق الأبيات مفكك مضطرب. فإذا حذفت أو قدمت أو أخرجت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص، وذلك لأن البدو بطبيعتهم يعوزهم النظر الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها سلك ولا تجمعها علاقة. ومن ثم كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة. ومنها استعمال الغريب ومتانة التركيب وجزالة اللفظ؛ لتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة البادية في طباعهم ونظام اجتماعهم. والابتداء بذكر الأطلال والديار، لأنهم أهل خيام ومضارب، والآف انتجاع وظعن، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه، وأحبة ترحلوا عنه. فتهيجه الذكرى فيحييه ويكيه والشعر الجاهلي على الجملة كثير التشابه قليل التنوع يجري في حلبة واحدة من السماع والتقليد.

الرواية والمعلقات:

المروي من الشعر الجاهلي على قصر عهده المعروف يفوت الجمع وتضيق عنه الحافظة. على أن كثيرين من رواته ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شطر كبير منه.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله. ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير» ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها مريبة، فإن الشعر لم يدون إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة وإن في نقله على الألسنة، طوال هذه الأزمنة، مظنة للتبديل والاختلاق والتزويد. وفيما روي عن حماد الرواية وخلف الأحمر من عبيثهما بالشعر وافتعالهما إياه مساغ لهذا الظن. ولعل القصائد التسع والأربعين التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب أصح الشعر القديم رواية وأصدقها تمثيلاً لأسلوبه ومنهاجه. وأبعد هذه القصائد مدى في الرواية، وأوفرها حظاً من الحفظ والعناية، المعلمات أو المذهبات أو السُموط. وهنّ على الرأي الغالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارتها فكتبتها بماء الذهب على القباطي، ثم علقتها بالكعبة اعجاباً بها وإشادة بذكرها. وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام: وأصحابها هم امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة ابن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة. ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة. فمن المتقدمين أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ومن المتأخرين المستشرق الألماني نولدكي Noeldeke على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام. فمن ذلك تعليق قریش الصحيفة التي وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله ﷺ حين أجمع على الدعوة؛ وتعليق الرشيد عهدته بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالمأمون فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم ومكانة الشعراء منهم؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق، فإن القصيدة التي قالها بئدار زعيم الشعر الغنائي يمدح بها دياجوراس قد كتبها بالذهب على جدران معبد أثينا في لمنوس.

نماذج من الشعر الجاهلي:

قال امرؤ القيس:

لِغَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ رَائِدِهِ خَالٍ
وَجَادَ عَلَيْهِ كَلَّ اشْحَمَ هَطَالٍ
كُمَيْتٍ كَأَنَّهَا هَرَاوَةٌ مِنْوَالٍ
وَأَكْرَعُهُ وَشِيَّ الْبُرُودِ مِنَ الْخَالِ
عَلَى جَمْزَى - خَيْلٍ تَجُولُ بِأَجْلَالِ
طَوِيلِ الْقِرَا وَالرُّوقِ أَخْسَنَ ذِيَالِ
وَكَانَ عِدَائِي إِذَا رَكِبْتُ عَلَيَّ بِالِي
عَلَى عَجَلٍ مِنْهَا أَطَأَيْءَ شِمَالِ

وَقَدْ أَغْتَدِي، وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
تَحَامَاهُ أَطْرَافُ الرَّمَاكِ تَحَامِيَاً
بِعَجْلِيزَةٍ قَدْ أَتَرَزَّ الْجَرِيَّ لِحْمَهَا
ذَعَرْتُ بِهَا سِرْبَانِقِيَاً جَلُودَهُ
كَأَنَّ الصُّوَارِ إِذْ تَجَاهَدْنَ غَدُوَّةً
فَجَالَ الصُّوَارِ، وَاتَّقَيْنَ بِقَرْهَبِ
فَعَادَيْتُ مِنْهُ بَيْنَ ثُورٍ وَنَعْجَةٍ
كَأَنِّي يَفْتَحَاءُ الْجَنَاحِينَ لِقُوَّةِ

وقد حَجَرْتُ مِنْهَا ثَعَالِبَ أَوْزَالٍ
لدى وَكْرَهَا - العُنَابُ والحَشْفُ البالي
كفاني - ولم أطلب - قليلٌ مِنَ المالِ
وقد يدرك المجدُّ المؤثِّل أمثالي
بمُدركِ أطرافِ الحُطوبِ ولا آل

تخطفُ حِزَانَ الأنيعمِ بالضحي
كَأَنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً وباساً
فلو أن ما أَسعى لأدنى معيشة
ولكنما أَسعى لمحدِّمُؤثِّلٍ
وما المرءُ ما دامت حُشاشةُ نَفْسِهِ

وقال النابغة الذبياني من قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

وتلك التي تَسْتَكِ مِنْهَا المِسامِعِ
وذلك من تلقاءِ مثلكِ رائِعِ
لقد نطقتِ بَطْلاً عَلَيَّ الأَفارِعِ
وَجُوهُ قُرودٍ تبتغي مَنْ تَجادِعِ
له من عدوٍ مثل ذلك شافعِ
ولم يأتِ بالحقِ الذي هو ناصِعِ
ولو كُبتِ في ساعديَّ الجوامِعِ
وهل يَأْتُمُنْ ذُو أمةٍ، وهو طائعِ
يرونَ إلاّ، سِيرُهُنَّ التَدافعِ
لَهُنَّ رِزايَا بالطريقِ وذائعِ
فَهُنَّ كَأطرافِ الحَيِّ خِواضعِ
كذي العُرَيكوى غيرَه وهو راتِعِ
ولا حَلِيفي عَلَيَّ البِراءَةِ نافعِ
وأنتِ بأمرٍ - لا محالة - واقِعِ
وإن خِلْتُ أن المِنتأى عنكِ واسعِ
تُمَدُّ بِهَا أيدٍ إِلَيْكَ نِوازِعِ
ويُتْرَكُ عِبدٌ ظالمٌ وهو ضالعِ
وسيفُ أَعيرتُه المِنية قاطِعِ
فلا نُكْرُ معروفٌ ولا العُرفُ ضائعِ
بِزوراءِ في حاناتها المسكُ كانعِ

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني
مقالة أن قد قلت: سوف أناله،
لعمرى - وما عمري عليّ بهين -
أقارعُ عوفٍ، لا أحاول غيرها
أتاك امرؤٌ مستبطنٌ لي بغضة
أتاك بقول هلهل النسج كاذب
أتاك بقول لم أكن لأقوله
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً
بمصطحباتٍ من إصافٍ وثبيرةٍ
سماماً تبارى الریحِ خوصاً عيونها
عليهنَّ شعتُ عامدون لحجهم
لكلفتني ذنب امرئٍ، وتركته
فإن كنت لاذ والضغن عني مكذب
ولا أنا مأمون بشيء أقوله
فإنك كالليل الذي هو مدركي
خطاطيفُ حُجْنٍ في حبالٍ متينةٍ
أتوعدُ عبداً لم يخنك أمانةً
وأنت ربيعٌ يُنعشُ الناسَ سببه
أبي الله له إلا عدله ووفاءه
وتسقى إذا ما شئت غيرَ مُصردٍ

وقال دُرَيْدُ بن الصَّمةِ في رثاء أخيه :

بعاقبةٍ، أم أخلفت كلَّ موعِدِ
ولم ترُجْ مِنَّا رَدَّةَ اليومِ أو غَدِ
بِناصيةِ الشحناء عَصْبَةَ مِذودِ

أرثُ جديداً الحبلِ من أمِّ مَعْبِدِ
وكانت، ولم أحمداً إليك نوالها
كأنَّ حمولَ الحَيِّ إذ متع الضحى

بكتابة لم يُخَبَط، ولم يتعضد
وربط بني السوداء والقوم شهدي
سراتهم في الفارسي المَسْرَد
مطنبة بين الستار وثهمد
جراد يباري وجهه الريح مُغثدي
فلم يستينوا الرُشد إلا ضحى الغد
غوايتهم أني بهم غير مُهتدي
غويت وإن ترشد غزية أرشد
فلما دعاني لم يجدني بقعد
بثدي صفاء بيننا لم يجد
كوقع الصيافي في النسيج الممدد
إلى قطع من جلد بوم مجلد
وحتى علايني حالك اللون أسود
ويعلم أن المرء غير مُخلد
فقلت: أعبد الله ذلكم الردي؟
فما كان وقافاً ولا طائش اليد
برطب العضاة والضرب المنضد
وطول السرى ذري غضب مُهند
صبور علي الضراء طلاع أنجد
فمن اليوم أعقاب الأحاديث في غد
لرؤيته كالماتم المتلبد
تداركها مني بسيد عمرد
طويل القرا نهد أسيل المُقلد
مُنيف كجذع النخلة المتجرد
يُمشي بأكناف الجبيل فثهمد
وإن يلق مثنى القوم يفرح ويزدد
كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

أو الأتابُ العمُّ المحرمُّ سوقه
فقلت لعارض وأصحاب عارض
علانية. ظنوا بألفي. مُدَجج
وقلت لهم: إن الأحاليف هذه
ولما رأيت الخيل قبلاً كأنها
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
وهل أنا إلا من غزية؟ إن غوت
دعاني أخي والخيل بيني وبينه
أخ أرضعتني أمه من لبانها
فجئت إليه والرماح تنوشه
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت
فطاعت عنه الخيل حتى تنهت
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه
تادوا فقالوا: أردت الخيل فارساً!
فإن يك عبد الله حلي مكانه
ولا برمماً إمام الرياح تناوحت
وتخرج منه صرة القر جزاة
كميش الإزار خارج نصف ساقه
قليل تشكبه المصيبات ذاكر
ذا هبط الأرض الفضاة تزينت
وكم غارة بالليل واليوم قبله
سليم الشطى عبل الشوى شنج النساء
يفوت طويل القوم عقد عذاره
وكنت كأني واثق بمصدر
له كل من يلقى من الناس واحداً
وهون وجدي أنسي لم أقل له:

وقال علقمة بن عبدة التيمي:

بَعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبِ
وَعَادَتِ عَوَادِ بَيْنِنَا وَخُطُوبِ
عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تَزَارَ رَقِيبِ

طحا بك قلب في الحسان طروب
يكلفني ليلي، وقد شط وليها
نعمة، ما يستطاع كلامها،

وَتَرْضَى إِيَابَ الْبَعْلِ حِينَ يُؤُوبُ
 سَقْتِكَ رَوَايَا الْمُزْنِ حِينَ تَصُوبُ
 تَرُوحُ بِهِ جُنْحَ الْعَشِيِّ جَنُوبُ
 يُخْطُ لَهَا مِنْ ثُرْمَدَاءِ قَلِيبُ
 بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
 فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنِ نَصِيبُ
 وَشَرْحُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ
 كَهَمُّكَ فِيهَا بِالرَّدَافِ خَبِيبُ
 بِكُلِّكُلِهَا وَالْقُضْرَيْنِ وَجِيبُ

إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تُفَشِّ سِرَّهُ
 فَلَا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَعْمَرِ
 سَقَاكَ يَمَانٍ ذُو حَبِيٍّ وَعَارِضِ
 وَمَا أَنْتَ؟ أَمْ مَا ذَكَرَهَا؟ رَبِيعِيَّةُ
 فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
 إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
 يُرَدُّنَ ثِرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ
 فَدَعُوهَا وَسَلُّ الْهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ
 إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي

وقال عبد يغوث الحارثي اليميني :

فَمَا لَكُمْ فِي اللُّومِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا
 قَلِيلٌ، وَمَا لَوْمِي أَخِي مِنْ شِمَالِيَا
 نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانِ أَنْ لَا تَلْقِيَا
 وَقِسًّا بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتِ الْيَمَانِيَا
 صَرِيحَهُمْ وَالْآخِرِينَ الْمَوَالِيَا
 تَرَى خَلْفَهَا الْحُوَّ الْجِيَادَ تَوَالِيَا
 وَكَانَ الرِّمَاحُ يَخْتَطِفُنَ لِمُحَامِيَا
 أَمْعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلَقُوا عَنْ لِسَانِيَا
 فَإِنْ أَخَاكُم لَمْ يَكُنْ مِنْ بَوَائِيَا
 وَإِنْ تُطَلِّقُونِي تَحْرِبُونِي بِمَالِيَا
 نَشِيدَ الرَّعَاءِ الْمَعْرَبِينَ الْمُتَالِيَا
 كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أُسِيرًا يَمَانِيَا
 أَنَا اللَّيْثُ مَعْدُوًّا عَلَيَّ وَعَادِيَا
 مَطِيًّا، وَأَمْضِي حَيْثُ لَا حَيٍّ مَاضِيَا
 وَاصْدَعْ بَيْنَ الْقَيْنَتَيْنِ رَدَائِيَا
 لِيَقَا بِتَصْرِيفِ الْقَنَاةِ بِنَانِيَا
 بِكَفِّي وَقَدْ أَنْحُوا إِلَيَّ الْعَوَالِيَا
 لِخَيْلِي: كَرِّي نَفْسِي عَنْ رَجَالِيَا
 لِأَيْسَارِ صِدْقِ أَعْظَمُوا ضَوْءَ نَارِيَا
 مُخْتَلِفَانِ: فَأَقْلِيهِ، وَيَقْلِينِي

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفَى اللُّومَ مَا بِيَا
 أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفَعُوهَا
 فَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضَتْ فَبَلَّغُنْ
 أَبَا كَرِبٍ وَالْأَيَّهَمَيْنِ كَلِيهِمَا
 جَزَى اللَّهُ قَوْمِي بِالْكَلابِ مَلَامَةَ
 وَلَوْ شِئْتَ نَجْتَبِي مِنَ الْخَيْلِ نَهْدَةَ
 وَلَكِنِّي أَحْمَى ذِمَارَ أَبِيكُمْ
 أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِشْعَةٍ
 أَمْعَشَرَ تَيْمٍ قَدْ مَلَكَتُمْ فَأَسْجِحُوا
 فَإِنْ تَقْتَلُونِي تَقْتُلُوا بِي سَيِّدًا
 أَحَقًّا عَبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ سَامِعًا
 وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ غَبْشَمِيَّةُ
 وَقَدْ عَلِمْتَ عِرْسِي مَلِيكَةَ أَنْنِي
 وَقَدْ كُنْتُ نَحَارَ الْحَزُورِ، وَمُعْمِلَ الْ
 وَأَنْحَرُ لِلشَّرْبِ الْكَرِيمِ مَطِيَّتِي
 وَكُنْتُ إِذَا مَا الْخَيْلُ شَمَّصَهَا الْقَنَا
 وَعَادِيَةَ سَوْمِ الْجِرَادِ وَرَعْتَهَا
 كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلُ
 وَلَمْ أَسْبِ الرِّزْقَ الرَّوِّيَّ، وَلَمْ أَقْلُ
 وَقَالَ ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدَوَانِي:

لِي ابْنُ عَمِّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ

أزرى بنا أننا شالتْ نعامتنا
يا عمرو إلا تدعُ شتمي ومنقصتي
لاه ابن عمك! لا أفضلت في حسب
ولا تقوتُ عيالي يوم مسغبةٍ
إني لعمرك ما بأبي بذى غلق
ولا لساني على الأدنى بمنطلق
عفٌ يؤوس إذا ما خفتُ من بلدٍ
عني إليك، فما أمي برأعيةٍ
كل امرئ راجع يوماً لشيئته
إني أبي أبي ذو محافظةٍ
وأنتم معشر زبدٌ على مائة
فإن علمتم سبيل الرشد فانطلقوا
مبأذا علي وإن كنتم ذوي رحمي
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم
اللَّهُ يعملني، واللَّهُ يعلمكم
قد كنت أوتيكم ثم نصحي، وأمنحكم
لا يخرجُ الكره مني غير مأبيةٍ

وقال الأفوه الأودي:

البيت لا يُبتني إلا له عمد
فإن تجمّع أوتادٌ وأعمدةٌ
لا يصلحُ الناس فوضى لا سراة لهم
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
إذا تولّى سراة الناس أمرهم

وقال ودّك بن ثميل المازني:

رويد بني شيبان بعض وعيدكم
تلاقوا جيداً لا تحيد عن الوغى
عليها الكمأة الغر من آل مارن
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم
مقاديم وصّالون في الرّوع خطوهم
إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم

فخالني دونه، وخلته دوني
أضربك، حتى تقول الهامة: اسقوني
عني، ولا أنت ديّاني فتخزونني
ولا بنفسك في العزّاء تكفيني
عن الصديق، ولا خيري بممنون
بالفاحشات، ولا فتكي بمأمون
هُوناً فليستُ بوقاف على الهون
ترعى المخاض، وما رأيي بمغبون
وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
وابن أبي أبي من أبيين
فأجمعوا أمركم كلاً فكيّدوني
وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني
ألا أحبكم إن لم تحبوني
ولا دماؤكم جمعاً تُرويني
واللَّهُ يجزيكم عني، ويجزيني
وُدّي على مُثب في الصدر مكنون
ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

ولا عماد إذا لم تُرس أوتادُ
وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
ولا سراة إذا جهّالهم سادوا
فإن تولّت فبالأشرار تنقادُ
نمّا على ذاك أمر القوم فازدادوا

تلاقوا غداً خيلي على سفوان
إذا ما غدت في المأزق المتداني
ليوث طعان عند كل طغان
على ما جنت فيهم يد الحدّثان
بكل رقيق الشفرتين يمان
لأية حزب أم بأي مكان

وقال زهير بن أبي سلمى يمدح هَرم بن سنان :

وأبيضَ فيأض يَدَاهُ غمَامَةٌ
أخي ثقةٌ لا يهلك الخمر مَالَهُ
تراه إذا ما جئته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال أيضاً!

وفيهم مقاماتُ حِسانٍ وجوههم
وإن جئتهم ألقيت حول بيوتهم
على مكثريهم رَزْقٌ من يعترِبهمُ
سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهمُ
فما كان من خير أنوه فإنما
وهل يُنبِت الخُطِيَّ إلا وشيخُهُ

وقال الأعشى يمدح المحلق :

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرة
تُشِبُّ لمقرورينَ يصطليانها
رضيحي لبانٍ ثدي أم تقاسما
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
يداه يدا صدق فكفٌ مُبيدَةٌ
إلى ضوء نار باليفاع تحرقُ
وبات على النار الندى والمحلِق
بأسحِم داج عَوْضٌ لا تَنفِرُق
كما زان متنَّ الهِنْدُواني رونق
وكفَّ إذا ماضنَّ بالمال تَنفُقُ

وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له وينعته بما يتمدح به الجاهليون من الصفات :

إني لَمُهَدٍ من ثنائي فقاصدُ
أهزُّ به في ندوة الحي عطفُهُ
قليل التشكي للمهم يصيبه
يظل بمومة ويمسى بغيرها
ويسبق وفد الريح من حيث يتحى
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل
ويجعل عينيه ربيئة قلبه
إذا هزه في وجه قرن تهلت
يرى الوحشة الإنس الأنيس ويهتدي

وقال عمرو بن الهذيل العبدي :

ولا تَرَجُ خيراً عند باب ابن مسمعٍ
ونحن أقمنا أمر بكر بن وائلٍ
إذا كنت من حيي حنيفة أو عجل
وأنت (بشاج) ماتمرٌ وما تحلى

وما تستوي أحساب قوم تُورثتُ

قديماً وأحساب نبتنَ مع البقل

وقال لبيد بن ربيعة يرثي النعمان :
ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل
وكل أناس سوف تدخل بينهم
وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه
فقولاً له إن كان يقسم أمره
فتعلم أنني لست مدرك ما مضى
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب
وإن لم تجد من دون عدنان والداً

أتحبُّ فيقضى أو ضلالاً وباطل؟
بلى ، كلُّ ذي لبٍّ إلى الله واسل
وكل نعيم لا محالة زائل
دوئيهةً تصفر منها الأنامل
إذا حُصِّلت عند الإله الحصائل
قضى عاملاً ، والمرء ما دام عامل
ألما يعظك الدهر؟ أمك هابل
ولا أنت مما تحذر النفس وائل
لعلك تهديك القرون الأوائل
ودون مَعَدٍّ فلتزعك العوائل

وقال عدي بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالده
أم لديك العهد الوثيق من الأيا
من رأيت المنون خلدن أم من
أين كسرى كسرى الملوك أبوسا
وأبو الخضصر إذ بناه وإذ دج
شاده مرمراً وجلله كد
وتبين رب الخورنق إذ أش
سره خاله وكثرة ما يم
فارعوى قلبه فقال وما غب
ثم بعد الفلاح والملك والأمة م
ثم أضحوا كأنهم ورق جف م

مر أنت المبرراً الموفور؟
م أم أنت جاهل مغرور؟
ذا عليه من أن يُضام خفير؟
سان أم أين قبله سابور؟
للة تجبى إليه والخابور
سأ فللطير في ذراه وكور
رف يوماً وللهدى تفكير
لك والبحر معرضاً والسدير
طة حي إلى الممات يصير؟
وارتهمُ هناك القبور م
فألوتُ به الصبَا والدبور م

وقال امرؤ القيس في معلقته يصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطى بصلبه
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
فيالك من ليل كأن نجومه

علي بأنواع الهموم ليبتلي
وأردف أعجازاً وناء بكلكل
بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
بكل مُغار الفتل شدت بيدبل

وقال فيها يصف جواده :

بمنجَرد قيَدِ الأوابد هيكل
كجلمود صخر حطه السيل من عل
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقد أعتدي والطيّر في وكناتها
مِكر مِفَرٍّ مقبل مدبر معاً
له أَيْطلا ظبي وساقا نعامية

وقال طرفة بن العبد يصف السفينة :

خلابا سفين بالنواصف من (دِد)
يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدي
كما قسم التُّرْبُ المفايل باليد

كأن حُدوج المالكية غدوة
عَدْوِلية أو من سفين ابن يامن
يشق حَباب الماء حيزومها بها

وقال أبو صعتره البولاني :

به جَبْنَا الجوديَّ والليل دامس
شمالٌ لأعلى مائه فهو فارس
ولكنني فيما ترى العين فارس

فما نطفة عن حَبِّ مزن تقاذفت
فلما أقرته اللصاب تنفست
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ،

وقال الأعشى :

خضراء جاد عليها مسيل هطل
مؤزر بعميم النبت مكتهل
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

ما روضةً من رياض الحزن معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة

وقال المتلمس جرير بن عبد العزى من قصيدة :

أقمنال له من خده فتقوما
وما علم الإنسان إلا ليعلما
جعلت لهم فوق العرائن ميسما
بكف له أخرى فأصبح أجذما
له دركا في أن تبينا فأحجما
فلم تجد الأخرى عليها مقدا
مساغاً لنا بيه الشجاع لصمما

يكننا إذا الجبار صعّر خده
نذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي
وما كنت إلا مثل قاطع كفه
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد
يداه أصابت هذه حنف هذه
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرص على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين. فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل. وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم، وينضحون عنهم يوم حفلهم، ويخلدون مآثرهم على الدهور، وينقشون مفاخرهم في الصدور، لا يتغنون على ذلك جزاء ولا صلة. على أن نفرأ منهم نكبوا بالشعر فغض ذلك من أقدارهم، وإن لم يغض من أشعارهم، كالنابغة مع النعمان، وزهير مع هرم بن سنان، والأعشى مع الملوك والسؤقة. وكان لكل شاعر راوية يلازمه ملازمة التلميذ لمعلمه. ينهج طريقه وينشر شعره ونابغو الشعراء قضا عهد الثقافة والمرانة في الرواية، فكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الإيادي، وزهير راوية أوس بن حجر، والأعشى راوية المسيب بن علس.

والشعراء بإعتبار الزمان أربع طبقات: جاهليون، وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يذكر، كامرئ القيس وزهير وأميرة بن أبي الصلت ولييد. ومخضرمون، وهم الذين اشتهروا بالشعر في الجاهلية والإسلام، كالخنساء وحسان بن ثابت. وإسلاميون: وهم الناشئون في الإسلام الباقون على سليقتهم في العربية، وهم شعراء بني أمية. ومولدون: وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس.

وهم بإعتبار الإجداد في رأي النقاد ثلاث طبقات: امرؤ القيس وزهير والنابغة، وهم رجال الطبقة الأولى. والأعشى ولييد وطرفة، وهم رجال الطبقة الثانية؛ وعنترة ودرديد بن الصمة وأميرة بن أبي الصلت، وهم رجال الطبقة الثالثة. وهذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم، لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد.

٣ - امرؤ القيس

٤٩٧ ≈ ٥٤٥ م
١٣٠ ق هـ ≈ ٨٠ ق هـ

نشأته وحياته :

هو الملك الضليل ذو القروح جندح بن حجر الكندي ، ولد أثيل المنبت كريم الأبوة والأمومة : فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بني أسد . وأمه أخت كليب ومهلhelل ابني ربيعة . فشب في حجر النعيم ودرج في مهد السراوة ؛ إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الراح ويغازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر . ثم أطلق لنفسه العنان في المجون ، وقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطرده أبوه ، وكان أصغر أولاده . فخرج في زمرة من أخلاط العرب ودؤبائهم يرتادون الرياض والغُدُر . فإذا صادفوا غديراً خيموا عليه وطفقوا يلعبون ويعاقرون ويصدون ؛ حتى إذا نضب الماء وذوي العشب تحولوا عنه إلى غيره . ولم تزل تلك حاله حتى بلغ دمون من أرض اليمن . وهناك أتاه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم . فقال امرؤ القيس : «ضيعني أبي صغيراً ، وحملني دمه كبيراً . لا صحو اليوم ولا سكر غداً . اليوم خمر ، وغداً أمر» ثم آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدّهن بدهن حتى يقتل من بني أسد مائة ويجز نواصي مائة . فلما أجنه الليل شام برقاً فقال :

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبتة بأمر تززع منه القل
بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جلل

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكرةً وتغلب وسار إلى بني أسد فأوقع بهم . ثم طلبوا أن يقدوه بمائة من وجوههم فأبوا ؛ فتخاذلت عنه بكر وتغلب . وطلبه المنذر بن ماء السماء لموجدة كانت في نفسه على قومه ، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة فتفرقت جموعه خوفاً من المنذر . وسار هو في القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه . فلجأ إلى السمؤال بن عاديا اليهودي فاستودعه دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر

٣ - انظر ترجمته في : فحولة الشعراء : ص ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٥ ، وطبقات فحول الشعراء : ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٢٣٥ ، والمغتالين : ص ٢٠٩ ، والشعر والشعراء : ص ٣٧ - ٥٦ ، والمؤتلف والمختلف : ص ٩ ، والأغاني : ٧٧/٩ - ١٧ ، ومعجم الشعراء : ص ٢٠٠ ، والموشح : ص ٢٧ - ٣٨ ، وسمط اللالي : ص ٣٨ - ٤٠ ، والتنهيد ، لابن عساكر : ١٠٤/٣ - ١١١ ، وخزانة الأدب ١٦٠/١ - ١٦٢ - ٤٦٠٩/٣

الغساني ليوصله إلى قيصر. فلما بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له في العرب، يريض له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة. فجهزه بجيش وسيره، ثم بدا له فأعاده. ونزلت بامرئ القيس علة جلدية فتقرح جسمه وتهرأ لحمه. والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطماح الأسدي على قيصر فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه. فبعث إليه قيصر بحلة وشي مسمومة وقد بلغ أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه. ويستدلون على ذلك بقوله:

لقد طمع الطماح من نحو أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك نعمى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما غشيته سكرة الموت قال: رب جفنة مثعنجرة، وطعنة مسحنفرة، وخطبة محبرة، تبقى غداً بأنقرة! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠ م^(١).

شعره:

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمينياً، فترعرع بين بني أسد في صميم العرب الخَلص، فسمع الأشعار ورواها، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال الشعر على حدائثه سنة. وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع الخاطر بديع الخيال بليغ التشبيه وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته فاستنبط المعاني الجديدة، ونهج المذاهب الحديثة. وارتسمت في شعره محدثات عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهه، فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال وبكى على الديار وشبَّ بالنساء، وشبههن بالمها والظباء، وأجاد وصف الليل والخيل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره. وإنك لتجد في شعره صورة كاملة من حياته وخلقه. ففيه عزة الملوكة، وتبذل الصعلوك، وعريضة الماجن، وحمية الثائر، وشكوى الموتور، وذلة الشريد، وهو بإجماع الرواة زعيم الجاهليين للأسباب التي مرت بك.

نماذج من شعره:

من خير ما أثر عنه معلقته التي سارت في الناس مسير المثل نظمها في حادثه وقعت له مع ابنة عمه عنيزة، ثم استطرد إلى وصف الليل ونعت الفرس وذكر المجون والصيد. قال في مطلعها.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(١) والأصح أنه توفي سنة ٥٤٥ هـ.

وقد مر شيء منها في النماذج . ومنها في الغزل :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
أغرّك مني أن حبّك قاتلي
وما ذرفت عينك إلا لتضربي
فإن كنت قد ساءتني خليقة
تسلّت عمايات الرجال عن الصبا
وإن كنت قد أزمعت هجري فأجملي
وأنتك مهما تأمري القلب يفعل
بسهميك في أعشار قلب مقتل
فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل
وليس فؤادي عن هواها بمنسل

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قميئة إلى قيصر :

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته
كذلك جدّي لأصاحب واحداً
تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت
ولما بدت حوران والآل دونها
تقطع أسباب اللبانات والهوى
بكي صاحبي لما رأى الدربّ دونه
فتلت له : لا تبك عينك إنما
وقرت به العينان بدلت آخرها
من الناس إلا خانني وتغيرا
على جمل بنا الركاب وأعفرا
نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
عشية غادرنا حماة وشيزرا
وأيقن أنا لاحقان بقيصر
نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

٤ - النابغة الذبياني

٠٠٠ ≈ ٦٠٤ م

٠٠٠ ≈ ١٨ ق هـ

نشأته وحياته :

هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، ولقب بالنابغة لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك ، ثم فجىء الناس بشعر بذبه الشعراء ، وكان له منه مادة لا تنقطع فشبوه بالماء النابغ . وهو أحد سراًة بني ذبيان ومن ذوي مثالتهم ، ولكن تكسبه بالشعر غض من قدره وطأطأ من إشرافه . اتصل

٤ - انظر ترجمته في : فحولة الشعراء : ص ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٥ ، وطبقات فحول الشعراء : ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٢٣٥ ، والمغتالين : ص ٢٠٩ ، والشعر والشعراء : ص ٢٠٠ ، والموشح : ص ٢٧ - ٣٨ ، وسمط اللاليء : ص ٣٨ - ٤٠ ، والتهديب ، لابن عساكر : ١٠٤/٣ - ١١١ ، وخزانة الأدب ١/١٦٠ - ١٦٢ ، ٦٠٩/٣ ، وابن عساكر : ٤٢٤/٥ - ٤٢٩ ، وشواهد العيني : ٨٠/١ ، وخزانة الأدب : ٢٨٧/١ - ٢٨٩ ، ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ٩٦/٤ - ٩٧ ، ومعجم المؤلفين : ١٨٨/٤ .

بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبغ نعمته عليه حتى أكل وشرب في آنية الذهب والفضة من جوائزه. وما زال النابغة يتبسّط على النعيم، ويتفياً ظلال الخفض، حتى درج بالنميمة بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته في وصف المتجردة زوج النعمان. فوقرت السعاية في نفس الملك فتوعده، فنجا الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذ بعمر بن الحارث الأصغر الغساني، فنزل منه في جناب مريع وأمن شامل، فزاد ذلك في حقد النعمان عليه لالتجائه إلى أعدائه ومنافسيه. وما زال النابغة عند بني غسان يصلهم بالدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل، فرجع يطلب الشفاعة إليه، ويرجو البراءة عنده، مقدماً بين يديه مع شفيعيه تلك القصائد الخالدة في الاعتذار، فاستلت ما في نفس الملك وأحلته منه في المكان الأول، وبقي في حال حسنة حتى أرحشه الكبر وقيد الهرم وسّم الحياة وقال:

المراء يأمل أن يعي	ش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويب	قى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى	لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي إن هلك	ت وقائل: الله دره

وكانت وفاته في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة.

شعره:

النابغة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشق غبارهم، ولا تلحق آثارهم، وهم امرؤ القيس وهو وزهير. ويمتاز من صاحبيه بديع كنيته، ودقيق إشارته، وصفاء ديباجته، وقلة تكلفه، وموافقة شعره لهوى النفوس. ولهذا لم يغن الناس بشعر أحد في الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غنوا به من شعره. وقد أجاد في وصف ليل الخائف، واعتذار الجاني، ومدح المنعم، إجادة لا يتعلق بها درك، إلا أنه كان يقوي في شعره ويقول: إن في شعري عاهة لا أدريها؛ حتى سمع مغنياً يغني بأبيات من شعره فيها إقواء، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه. وقد عرف شعراء العرب له تلك المكانة السامية في الشعر فقدموه في عكاظ واحتكموا إليه في الخصومات الأدبية فكان يقضي بينهم موقو القضاء مطاع الحكم.

نموذج من شعره:

قال من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الغساني:

كليني لهم با أميمة ناصب	وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه	تضاعف فيه الحزن من كل جانب
علي لعمرو نعمة بعد نعمة	لوالده ليست بذات عقارب

كتائب من غسان غير أشائب
عصائب طير تهدي بعصائب
بأيديهم بيض رقاق المضارب
بهنّ فلول من قراع الكتائب
من الجود، والأحلام غير عواذب
يُحيون بالريحان يوم السباب
ولا يحسبون الشرّ ضرباً لازب

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
فهم يتساقون المنية بينهم
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
رقاق النعال طيب حجزاتهم
ولا يحسبون الخير لا شر بعده

٥ - زهير بن ابي سلمى

٠٠٠ - ٦٠٩ م

٠٠٠ - ١٣ ق هـ

نشأته وحياته :

نشأ زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني في أقارب أبيه من بني غطفان، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه، وكان رجلاً مقعداً عقيماً حكيماً قد اشتهر بسداد الرأي وجودة الشعر ووفرة المال، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه، وظهر ذلك جلياً فيما رصع به شعره من درر الحكمة. ولما مشى الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريان بالصلح بين عيس وذبيان وأطفأ نار الحرب بأحتمالها ديات القتلى عن الحيين، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير، استنزته هذه الأريحية فمدحهما بمعلقته. ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطنب في ذلك حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً. فستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه، وأصبح إذا رآه في ملاء من الناس قال عموا صباحاً إلا هرمًا، وخيركم. استنثت. وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم: أنشدني بعض مدائح زهير في أبيك، فأنشده. فقال عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول. فقال: والله ونحن كنا نحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم وكان زهير على جدته رجب الأناة راجح الحصاة شديد الرأي شديد الورع مؤثراً للسلم مؤمناً بالله واليوم الآخر. يشهد بذلك قوله في معلقته:

٥ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٤ - ١٧، ٣٤، ٤١، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٥٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٢ - ٥٤، والمُعَمَّرُون، ص ٨٣، والأغاني: ١٠/٢٨٨ - ٣٢٤، والحصري: ص ٥١ - ٥٢، وبسْمُط اللّآلِيء: ص ٢٦١، وشواهد العيني: ٢/٢٦٧ - ٢٧١، ومعاهد التنصيص: ١/٣٢٧، ومعجم المؤلفين: ٤/١٨٦، ومراجع: ٣/١٣٩ - ١٦٤.

فلا تكتُمَنَّ الله ما في صدوركم ليخفي ومهما يُكْتَمِ اللهُ يُعْلَمِ
يؤخّر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فيُنقِم

وقد عمر زهير حتى نيف على المائة كما يؤخذ من قوله :
بدالي أني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانياً
وتوفي قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولداه كعب وبجير .

شعره :

بيت زهير عريق في الشاعرية : فأبوه وخاله ، وأختاه سلمى والخساء ، وولده كعب
وبجير ، من الشعراء المذكورين ، وذلك ما لم يكن لغيره . وهو كما علمت أحد الثلاثة
الفحول . وفي الناس من يفضله على امرئ القيس والنابغة ، لأن شعره يمتاز بصدق
اللهجة ، وخلوه من الحوشي والتعقيد ، وبعده عن سخف القول وهجر الحديث ، وجمعه
الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ . وهو واحد من الشعراء في إجادة المدح وضرب
المثل وإرسال الحكمة . وزهير من عبيد الشعر الذين تعملوه ونقحوه . وله قصائد تعرف
بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة ، ثم يعرضها على
خاصة الشعراء في أربعة ، فلا ينشدها الناس إلا بعد حول .

تحليل موجز لمعلقته :

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرّيين على
سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان . ولكنه افتتحها على عادة الجاهليين بالوقوف على أطلال
الأحبة وتحيتها ونعثها وتنسّم الذكريات من خلال آثارها ، فوقف على الدمن البكم الدوارس
من ديار أمّ أوفى بعد أن أتى على عهده بها عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة :
فلما عرفت السدار قلت لربعها ألا عمّ صباحاً أيها الربع واسلم

ثم تمثلت في خاطره طعائن الحبايب متحملات تغشيهن سدول صفيقة النسيج ، وكلّه
وردية الحواشي ، فيتبعهن ببصرة الحزين وقلبه الواله ، فيصف ما سلكته من طُرق وما نزلته
من منازل حتى يبلغن المنزل الذي أردنه ، وما أجمل أسلوبه في استحضار هذه الذكرى ،
حتى كأنها ماثلة للعيون فلو تبصّر صاحبه قليلاً لراها :

تبصّر خليلي هل ترى من طعائن تحمّلن (بالعلاء) من فوق (جرثم)
تلون بأنماط عتاق وكلّة وراء حواشيهما مشاكهة الدم
بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن لوادي الرس كاليد في الفم
وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

فلما وردن الماء زُرقا جِمامة
ووضعن عِصِيَّ الحاضر المتخيم
ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العشيرة فقال
لهما:

يمينا لَنِعَم السيدان وجدتما
تداركتما عيسا وذبيان بعدما
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا
فأصبح يجري فيهم من تلادكم
على كل حال من سَحِيل ومبِرم
تفانوا ودقوا بينهم عِطْر مَنْشَم
بمال ومعروف من الأمر نسلم
مغانم شتى من إفال المَزْتَم

ثم قطع المدح مؤقتاً ليدعو الخصوم إلى السلم في لين ورفق، ولكنه ذكر الحرب
فاشدد وأنكر ما تجر على الناس من أوزار وأضرار:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
فنعرككم عرك الرحا بئفالهها
فَنُغْلِلْ لَكُمْ ما لا تُغَلْ لأهلها
وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم
وتضرر إذ ضربتموها فتضرم
وتلْفَحُ كِشَافاً ثم تحمل فتثم
قري بالعراق من قفيز ودرهم

ثم عاد إلى رُجْليه فمضي في مدحهما على ما رأيا من صدع لم يحدثاه، ووصف هم
ابن ضمضم بالجناية وعزمه عليها:

وكان طوي كشحاً على مستكنة
وقال سَأَفْضِي حاجتي ثم أتقي
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة
لدي أسد شاكِي السِلاح مُقَدِّفِ
رعوا مارعوا من ظمئهم ثم أوردوا
فَمَقَّضُوا منايا بينهم ثم أصدروا
فلا هو أبداها ولم يتجمجم
عدوي بألف من ورائي مُلْجَم
لدي حيث أَلَقْتُ رحلها أم قشعم
له لِبَدِ أظفاره لم تُقَلِّم
غماراً تسيل بالرماح وبالدم
إلى كِلا مُسْتَوْبِلِ متوخم

ثم غلبت عليه نزعتة الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوقف موقف الحكيم يتبرم بالحياة
ويفكر في الموت ويعظ بالتجارب:

رأيت المنايا خَبَطَ عشواء من تصب
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن يجعل المعروف في غير أهله
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وكائن تري من معجب لك شخصه
تمته ومن تُخْطِئُ يعمر فيهمرم
ولو نال أسباب السماء يسلم
يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
يعد حمده ذماً عليه ويندم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

٦ - الأعشى

٠٠٠ - ٦٢٩ م

٠٠٠ - ٧ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل أحد أمراء الشعر المتكسبين به القائلين في أكثر ضروبه. نشأ باليمامة في قرية تسمى منفوحة، وثقف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيب بن علس، حتى إذا حُصِف عقله وأرتاض لسانه، أنتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك يمدحهم ويستجديهم. وفد على بني عبد المدان ملوك نجران فأكرموا ثوائه وأجزلوا عطائه، وأكتسب من خلطهم إدمان العقار، والتأثر ببعض الأفكار، فظهر شيء من ذلك في شعره ولا سيما وصف الخمر. وطال عمر الأعشى حتى أبيضت عيناه من الكبر. وسمع بأمر الرسول ﷺ فصنع في مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالحجاز، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه: وقال لهم أبو سفيان: والله لئن أتى محمداً أو أتبعه لَيَضْرَمَنَّ عليكم نيران العرب بشعره، فأجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، وأخذها الأعشى ورجع؛ حتى إذا دنا من اليمامة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه.

شعره :

من الرواة وذوي البصر بالشعر من يجعل الأعشى رابعاً لأمراء القيس وزهير والنابعة. ويقولون: أشعر الناس أمرو القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابعة إذا رهب، والأعشى إذا طرب. وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل. وفي الحق أنك تجد في شعره ما لا تجد في شعر غيره من رونق الحسن، وطلاوة الأسلوب، والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول... وكان لشعره جَلْبَةٌ في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس، فسمي لذلك صنّاجة العرب. ولقد أعز بشعره وأذل؛ وقصته مع المخلوق، وفارق القرشيين من إسلامه يدلان على ذلك.

٦ - انظر ترجمته في: النقاظ: ص ٦٤٤، وفحولة الشعراء: ص ١٩، ٢١، ٣٦، ٤٢، ٤٨، ٥٢، والشعر والشعراء: ص ١٣٥ - ١٤٣ والمؤتلف والمختلف: ص ١٢، والعقد الفريد: ٣/٣٦٣، والأغاني: ١٠٨/٩ - ١٢٩، ومعجم الشعراء: ص ٤٠١، والموشح: ص ٤٩ - ٥٧، والمكاثرة: ص ٢، وسمط اللاليء: ص ٨٣، ومعاهد التنقيص: ١/١٩٦ - ٢٠٢ وخزانة الأدب: ١/٨٤ - ٨٦.

نموذج من شعره:

ومن جيد شعره قصيدته اللامية التي عدها بعضهم من المعلمات ومطلعها:
ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

ومنها:

أبلغ يزيد بني شيان مألّكة
ألم تغتمض عيناك أرمدا
ألم تغتمض عيناك أرمدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن
شباب وشيبٌ وأفتقار وثرورة
قالوا الطراد، فقلنا تلك عادتنا،
لقد زعمتم بأننا لا نقاتكم
أو تنزلون فإننا معشر نُزّل

ومن قصيدته التي أعدها لمدح الرسول قوله:

وبتّ كما بات السليم مسهدا
تناسيت قبل اليوم خلة مهّدا
إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
فله هذا الدهر كيف تردّدا!

ومنها:

فآليت لا أرثي لها من كلاله
متى ما تنأخي عند باب ابن هاشم
نبي يري ما لا يرون وذكره
له صدقات ما تعبٌ ونائل
ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
تُراحي وتلقي من فواضله ندى
أغار لعمرى في البلاد وأنجدا
وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

٧ - عترة العبسي

٠٠٠ = ٦١٥ م

٠٠٠ = ٢٨ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو المغلس عترة بن عمرو بن شداد العبسي، نجله أبو شريف وأم حبشية تدعى

٧ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء ص: ٢٧، ٣٥، ٤٤، ٦٣، والمغتالين: ص ٢١٠ - ٢١١، والأغاني:
٢٣٧/٨ - ٢٤٦، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥١، ومعجم الشعراء: ص ٢٤٦، والموشح:
ص ٨١، والشواهد: ٤٧٨/١ وخزانة الأدب: ٦٢/١.

زُبَيْبَةَ، فهو من هُجِنَاءِ الْعَرَبِ وَأَغْرَبْتَهُمْ، فَأَنْتَفَى مِنْهُ أَبُوهُ مِنْذُ وِلَادَتِهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي أَبْنَاءِ الْإِمَاءِ، وَلَكِنَّهُ نَزَعَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَالِ الْعِبُودِيَّةِ، وَأَخَذَ يَرُوضُ نَفْسَهُ عَلَى الطَّرَادِ وَالْفَرُوسِيَّةِ حَتَّى غَدَا مِسْعَرَ حَرْبٍ وَقَائِدَ كَتِيْبَةٍ. وَأَتَّفَقَ أَنْ بَعْضَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَغَارُوا عَلَى عَبْسٍ فَأَسْتَأْقُوا إِبْلَهُمْ، وَتَبِعَهُمُ الْعَبْسِيُّونَ وَعَنْتَرَةُ فِيهِمْ. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: كَرِّ يَا عَنْتَرَةُ. فَأَجَابَهُ وَهُوَ يَحْقِدُ عَلَيْهِ اسْتِعْبَادَهُ إِيَّاهُ: الْعَبْدُ لَا يَحْسُنُ الْكُرَّ، وَإِنَّمَا يَحْسُنُ الْحَلْبَ وَالضَّرَّ. فَقَالَ: كَرِّ وَأَنْتَ حَرٌّ. فَكَّرَ وَقَاتَلَ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى هَزَمَ الْمَغِيرِينَ وَأَسْتَرَجَعَ الْإِبِلَ، فَاسْتَلْحَقَهُ أَبُوهُ. وَأَخَذَ اسْمَهُ مِنْذُ يَوْمِئِذٍ سِيرٍ وَذَكَرَهُ يَطِيرُ حَتَّى أَصْبَحَ مُضْرَبَ الْمَثَلِ فِي الْإِقْدَامِ وَالْجِرَاءَةِ. وَلَهُ فِي تَعْلِيلِ شَهْرَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ رَأْيٌ حَصِيفٌ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهِ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَنْتَ أَشْجَعُ النَّاسِ وَأَشَدَّهُمْ، فَقَالَ لَهُ: لَا. قَالَ فَبِمَاذَا شَاعَ لَكَ هَذَا فِي النَّاسِ؟ قَالَ: كُنْتُ أُقَدِّمُ إِذَا رَأَيْتُ الْإِقْدَامَ عَزْمًا وَأُحْجِمُ إِذَا رَأَيْتُ الْإِحْجَامَ حَزْمًا، وَلَا أَدْخُلُ مَوْضِعًا لَا أَرَى لِي مِنْهُ مَخْرَجًا. وَكُنْتُ أَعْتَمِدُ الضَّعِيفَ الْجَبَانَ فَأَضْرِبُهُ الضَّرْبَةَ الْهَائِلَةَ يَطِيرُ لَهَا قَلْبُ الشَّجَاعِ فَأَنْتِي عَلَيْهِ فَأَقْتَلُهُ.

قَادَ عَنْتَرَةُ كِتَابَ عَبْسٍ فِي حَرْبِ دَاحِصٍ وَالْغُبْرَاءِ فَأَحْسَنَ الْقِيَادَةَ، وَبَلَغَ أَوْجَ السِّيَادَةِ. ثُمَّ تَنَفَسَ بِهِ الْعَمْرُ حَتَّى وَهَنَ عَظْمُهُ وَرَقَّ جِلْدُهُ وَقَتَلَ حَوْلِي سَنَةَ ٦١٥ م.

شعره:

لَمْ يَرَوْا عَنْ عَنْتَرَةَ فِي حَالِ رَقِّهِ مِنَ الشَّعْرِ جَيِّدٌ وَلَا رَدِيءٌ. لِأَنَّ الْعِبُودِيَّةَ تَرِينٌ عَلَى الْقُلُوبِ وَتَطْفِيءُ ضَرَامَ الْعَوَاطِفِ، فَلَمَّا اسْتَلْحَقَهُ أَبُوهُ وَحَالَفَهُ الْفَوْزَ فِي حَرْبِهِ، وَأَسْتَوْلَى حُبَّ عَيْلَةٍ عَلَى قَلْبِهِ، جَاشَ الشَّعْرُ فِي صَدْرِهِ وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ فِي الْفَخْرِ وَالْحَرْبِ وَالْحُبِّ، فَجَاءَ بِالْمَعْجَبِ الْمَطْرَبِ. تَجَدَّدَ لِشَعْرِهِ حَلَاوَةُ الْغَزْلِ وَمَتَانَةُ الْفَخْرِ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ مَدْخُولِ النَّسَبِ لَا يَمْتُّ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَشَابُهِ الْأَسْلُوبِ وَالْغَرَضِ. فَمِنْ شَعْرِهِ الَّذِي لَا دَخَلَ فِي أَصْلِهِ مَعْلَقَتُهُ الرَّيْقَةُ. الْفَخْمَةُ الَّتِي نَظَمَهَا دِفَاعًا عَنْ شَاعِرِيَّتِهِ وَإِثْبَاتًا لِفَصَاحَتِهِ: فَقَدْ حَدَّثُوا أَنَّ رَجُلًا مِنْ عَبْسٍ سَأَبَهُ فَذَكَرَ سِوَادَهُ وَأَمَّهُ. فَقَالَ لَهُ عَنْتَرَةُ: «إِنِّي لِأَحْضُرُ الْبَأْسَ، وَأُوفِي الْمَغْنَمَ، وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ، وَأَجُودُ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي، وَأَفْضَلُ الْخِطَةَ الصَّمَاءِ». فَقَالَ لَهُ السَّابُّ: أَنَا أَشْعَرُ مِنْكَ. فَقَالَ: سَتَعْلَمُ ذَلِكَ. ثُمَّ غَدَا عَلَى النَّاسِ بِمَذْهَبَتِهِ الْمَشْهُورَةِ فَقَطَعَ خَصْمَهُ وَنَقَضَ حِكْمَهُ.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

ولقد شربت من المدامة بعد ما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
فإذا سكرت فإنني مستهلك	مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فلا أقصر عن ندي	وكما علمت شمائلتي وتكرمي
ومدجج كره الكماة نزاله	لا مُمعِنٍ هرباً ولا مستسلم

جاءت يداي له بعاجل طعنة
فشككت بالرمح الأصم ثيابه
فتركته جزر السباع ينشنه
لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يدعون عتتر والرماح كأنها
ما زلت أرميهم بثغرة نحره
فازور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدري ما المحاورة أشتكى
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها
والخيل تقتحم الغبار عوابسا
وقال أيضاً:

بمئق صدق الكعوب مقوم
ليس الكريم على القنا بمحرّم
يقضمن حسن بنانه والمعصم
يتذامرون كررت غير مذمّم
أشطان بئر في لبان الأدهم
ولبانه حتى تسربل بالدم
وشكا إليّ بعبرة وتحمّم
ولكان لو علم الكلام مكلمي
قيل الفوارس وبك عتتر أقدم!
ما بين شيطمة وأجرد شيطم

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
فأجبتها إن المنية منهل
فأقني حياءك لا أبالك وأعلمي
إن المنية لو تمثل مثلت
إني أمرؤ من خير عبس منصباً
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
والخيل تعلم والفوارس أنني
والخيل ساهمة الوجوه كأنما
ولقد أبيت على الطوى وأظله

أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل
أني أمرؤ سأموت إن لم أقتل
مثل إذا نزلوا بضنك المنزل
شطري، وأحمي سائري بالمنصل
الفيث خيراً من معيم مخول
فرقت جمعهم بضربة فيصل
تسقى فوارسها نقيع الحنظل
حتى أنال به كريم المأكمل

٨ - طرفة بن العبد

٥٣٨ - ٥٦٤ م

٨٦ - ٦٠ ق هـ

نشأته وحياته:

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكري يتيماً من أبيه، فكفله أعمامه. فأهملوا تربيته

٨- انظر ترجمته في: فحول الشعراء: ص ٤٢، ٥٨، ٥٩، وطبقات فحول الشعراء، للجمحي، انظر: فهرسه، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٦، الأغاني (ليس لطرفة ترجمة مستقلة، انظر: فهرسه، وإنما =

وأساءوا أذبه. فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل، عاكفاً على اللهو والخمر. مولعاً بالوقوع في أعراض الناس. وقد دعاه نزق الشباب أن يهجو الملك عمرو بن هند على اضطرابه إلى رضائه، وأفتقاره إلى حباته فأحتقدها عليه عمرو وأضمر له السوء. حتى إذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله - وكان المتلمس قد هجاه أيضاً - هس للقائهما يريد أن يؤمنهما، وأمر لكل منهما بصلة وأحالهما بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه. فلما كانا في طريقهما إلى العامل، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس وهم، فآلمس من يقرأها له فإذا فيها: «باسمك اللهم، من عمرو بن هند إلى المكعبر، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فأقطع يديه ورجليه ثم آدفنه حياً» فألقى الصحيفة في النهر، ثم قال لطفرة: معك واللّه مثلها، فقال: كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك. وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعمره ست وعشرون سنة.

شعره:

كان طرفه منذ الحداثة متوقد الذهن، مضطرم الشعور، حاد البادرة، فنبغ في الشعر وعد من فحوله وهو دون العشرين. ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته. ولعله كان مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره. يمتاز طرفه بصدق الوصف، والبعد عن الغلو فيه، إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى غريب اللفظ، وتجد ذلك كله واضحاً في معلقته التي ابتدأها بالغزل، وأستطرد إلى وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشعر ومبتكره، ثم أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه، وهي من أمتن الشعر وأبلغه، وهاك تحليلها بإيجاز.

تحليل موجز لمعلقته:

ابتدأها طرفه بذكر أطلال (خولة) وتشبيهاً ببقية الوشم في ظاهر اليد؛ ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً، ثم نعتها هي نعتاً جميلاً هاج في صدره الهم فنجاً من تذكاره وأحتضاره على ناقه وصف أعضائها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة:

بهوجاء مرقال تروح وتغتدي	وإني لأمضي الهم عند أحتضاره
وظيفاً وظيفاً فوق مور مُعَبَد	تُباري عتاقاً ناجيات، وأتبع
بعيدة وخذ الرّحل موارة اليد	صُهائبية العُشون مُوجدة القرا

= يأتي ذكره في إطار أخبار المتلمس، في المرجع السابق)، ومعجم الشعراء: ص ٢٠١ - ٢٠٢، والموشح، للمرزباني، انظر: فهرسه، وكتاب من اسمه عمرو: لابن الجراح: ص ٤٨، ومعاهد التنصيص: ٣٦٤/١، وخزانة الأدب: ٤١٣/١ - ٤١٧. ومعجم المؤلفين: ٤٠/٥، والمراجع: ٢٢١/٣ - ٢٢٧.

وَأَتْلُعْ نَهَاضٌ إِذَا صَعَدْتُ بِهِ كَسْكَانٌ بُوصِيَّ بِدَجَلَةٍ مُضْعِدٍ

ثم يفرغ نفسه فيصفيها باللهو في السلم وبالمخاطرة في الحرب فيقول:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتَى؟ خَلْتُ أَنِّي
وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التَّلَاعِ مَخَافَةَ
فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلَقَّنِي
وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخَمُورَ وَلذَّتِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا
رَأَيْتَ بَنِي غِبْرَاءَ لَا يَنْكُرُونَنِي
أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الْوَعْيَى
فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي

ثم يعلن في صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمر والحب والنجدة؛ ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت:

وَلَوْلَا ثَلَاثَ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى
فَمَنْهَنْ سَبْقِي الْعَاذِلَاتِ بِشْرِبَةِ
وَتَقْصِيرِ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنِ مَعْجِبِ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُجَنَّبًا
لِعَمْرِكَ لَمْ أَحْضَلْ مَتَى قَامَ عُوْدِي
كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلُّ بِالْمَاءِ تَزِيدُ
بِيَهْكَنَةِ تَحْتَ الْخَبَاءِ الْمَعْمَدِ
كَسَيْدِ الْغَضَى ذِي السُّورَةِ الْمَتُورِدِ

ثم يدعو استعجاله اللذة ومبادرته اللهو وإتلافه المال وأقتحامه الخطر انتهازاً لفرصة الحياة وأستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة في البخل والموت فيقول:

أَرَى قَبْرَ نَحَامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامِ وَيَصْطَفِي
أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
لِعَمْرِكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
مَتَى مَا يَشَاءُ يَوْمًا يَقْدَهُ لِحَتْفِهِ

ويمضي الشاعر بعد ذلك زارياً على ابن عمه، شاكياً من ظلم قومه، مفتخراً بحسن

بلائه وقوة عزمه:

فَمَالِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكًا
وَظَلَمَ ذَوِي الْقَرْبِيِّ أَشَدَّ مَضَاضَةً
أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ الْنَفُوسِ وَلَا أَرَى
أَنَا الرَّجُلَ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ
إِذَا أَتَدَّرَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ وَجَدْتَنِي
مَتَى أَدُنُّ مِنْهُ يَنَاءً عَنِّي وَيَبْعَدُ
عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقَعِ الْحَسَامِ الْمَهْنَدِ
بَعِيدًا غَدًّا، مَا أَقْرَبَ الْيَوْمِ مِنْ غَدَا!
خَشَاشٌ كِرَاسِ الْحَيَةِ الْمَتَوَقَّدِ
مَنِيْعًا إِذَا بَلَّتْ بِقَسَائِمِهِ يَدِي

فلو كنتُ وغلا في الرِّجال لضرَّني
ولكن نفى عني الرِّجال جرائتي
عداوةُ ذي الأصحاب والمتوحّد
عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

٩ - عمرو بن كلثوم

٠٠٠ - ٥٨٤ م

٠٠٠ - ٤٠ ق هـ

نشأته وحياته:

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي بالجزيرة الفراتية بين ذوي الحسب اللباب من تغلب، وشبَّ على خلال العظماء عزيز النفس أبي الضيم ذرب اللسان. وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته. وكان قطباً لرحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جرّاء البسوس وأبلى فيها البلاء الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر. على أن أمّد ذلك الصلح لم يطل، فأنشقت العصا بين وجوههم ونزّت رؤسهم الحفيظة، وتلاحوا في مجلس عمرو بن هند، فقام الحارث ابن جلزة شاعر بكر وألقى معلقته المشهورة فعطفت هوى الملك إلى قومه، وكانت ضلعه مع التغليبين. فأنصرف ابن كلثوم موغر الصدر على ابن هند. وحدث بعد ذلك أن الملك قال لبعض خاصته. أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم، فإن أباه مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل، وبعلمها كلثوم بن عتاب فارس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزير أمه أمه. فأقبل عمرو وأمّه من الجزيرة في جماعة من تغلب. وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا. وكان عمرو بن هند قد أغرى أمه أن تستخدم ليلي بنت مهلهل في قضاء أمر. فلما دخلت عليها الرواق وأطمأن بها المجلس، قالت لها: ناوليني الطبق. فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فلما ألحت صاحبت ليلي: واذلاه! فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه. ثم عاد تواً إلى الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة. استهلها

٩- انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٩، ٤٣، ٦٠، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٢٧، والمعمرّون: ص ٣٠٦، والشعر والشعراء: ص ١١٧-١٢٠، والأغاني: ٤٢/١١، وفي المرجع السابق: ص ٥٢-٦٠، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٥-١٥٦، ومعجم الشعراء: ص ٢٠٢، والموشح: ص ٨٠، وجمهرة أشعار العرب: ص ٣١، ٧٤، وسمط اللاليء: ص ٦٣٥-٦٣٦، وخزانة الأدب: ٥١٩/١-٥٢١.

بذكر الخمر والغزل، ثم وصف فيها أمره مع عمرو بن هند، وأفتخر بنفسه وقومه. ولقد تجاوبتها المجمع وتناقلتها الألسنة وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر.

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدةً قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم!
وكانت وفاته في أواخر القرن السادس للميلاد.

شعره:

عمرو بن كلثوم شاعر غمّر البديهة، رائق الأسلوب، نبيل الغرض؛ إلا أنه مُقلٌّ. لم يتقلب في فنون الشعر فلم يُرخ العنان لسليقته، ولم يطع سلطان قريحته. وكل ما روي عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

أبا هند فلا تعجل علينا
بأنا نورد الرايات بيضا
ورثنا المجد عن عليا معدّ
كأن سيوفنا منا ومنهم
ألا لا يجهلن أحد علينا
بأي مشيئة عمرو بن هند
فإن قناتنا يا عمرو أعيت
وقد علم القبائل من معدّ
بأنا المطعمون إذا قدرنا
وأنا المانعون لما أردنا
وأنا التاركون إذا سخطنا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً
إذا ما المَلِكُ سام الناس خسفاً
لنا الدنيا ومن أمسى عليها
ملائنا البر حتى ضاق عنا
إذا بلغ الفطام لنا صبي

وأنظرنا نخبرك اليقيناً
ونصدرهنّ حمراً قد رويناً
فطاعن دونه حتى يبينا
مخاريقُ بأيدي لا عبيناً
فنجهل فوق جهل الجاهليناً
تطيع بنا الوشاة وتزدريناً؟
على الأعداء قبلك أن تليناً
إذا قُبِبُ بأبطحها بُنيناً
وأنا المهلكون إذا آبتليناً
وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا الآخذون إذا رضينا
ويشرب غيرنا كدراً وطينا
أبيناً أن نقر الخسف فينا
ونبطش حين نبطش قادريناً
وماء البحر نملاه سفيناً
تخر له الجبابر ساجديناً

١٠ - الحارث بن حلزة

٥٧٠ - ٠٠٠ م

٥٠ - ٠٠٠ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الظليم الحارث بن حلزة اليشكري البكري. كان في بني بكر مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب. وقد أشتهر مثله بمعلقته التي يقال إنه ارتجلها عفو الساعة في حضرة الملك عمرو بن هند يستدني بها عطفه، وينضح فيها عن قومه. وكان من أمرها أن بكرًا وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو بن هند على أن يأخذ من الفريقين رهائن ليقيدها منها للمبغى عليه من الباغي، تراشق الحيان بالثهم ورمت تغلب بكرًا بالصدر، وتدافع الفريقان إلى عمرو بن هند وتلاحوا أمامه، وكان هواه مع التغليبيين. فاستفز ذلك الحارث بن حلزة - وكان حاضراً - فأبتدئه قصيدته ابتداها وأنشدها وهو متكئ على قوسه. فيقولون إن كفه أقتطعت وهو لا يشعر من الغضب. وقد أجاد في مدح الملك حتى استولى على رأيه، ومال به إلى حزبه، وأستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان بن هرم زعيم قومه. وعمر الحارث طويلاً حتى زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة.

شعره:

كل ما بين أيدينا من شعره معلقته وبعض مقطوعات يسيرة لا تعلق شهرته ولا تعين طبقته. فهو في هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو بن كلثوم. على أن مطولته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها، وأرتجالها في موقف واحد. وقد قال أبو عمرو الشيباني: «لو قالها في حول لم يلم» ويقولون: إنه أنشدها من وراء ستور لبرصه، فأمر الملك برفعها استحساناً لها وتكرمة له. بدأها بالغزل ثم وصف ناقته وعير التغليبيين مواقع ظهورها عليهم فيها، وأتى على كثير من أيام العرب، ومدح عمرو بن هند، وأفتخر بقومه وحسن بلائهم عنده.

١٠ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٩، ٥٩، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٢٧ - ١٢٨، وشرح ابن الأنباري على المعلقات، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٤٣١ - ٤٣٢، والمؤتلف والمختلف: ص ٩٠، والأغاني: ٤٢/١١ - ٥٠، ص ٧٧، وسقط اللآلئ: ص ٦٣٨ - ٦٣٩، والمزهر: ٤٧٧/٢، ٤٨٠، ٤٨٧. ومعاهد التنصيص: ٣١٠/١، وخزانة الأدب: ١٥٨/١.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

إن إخواننا الأراقم يغلبو
يخلطون البريء منا بذئ الذن
أيها الناطق المرقش عنا
لا تخلنا على غراتك إنا
فبقينا على الشنأة تنمي
ملك مُقسطٌ وأفضل من يم
أيما خُطبة أردتم فأدو
فأتركوا الطيخ والتعاشي وإما
وآذكروا حلف ذي المجاز وما قد
وأعلموا أننا وإياكم في
أعلينا جناح كندة أن يغ
ومنها في وصف التأهب للرحيل:

أجمعوا أمرهم عشاء فلما
من مناد ومن مجيب ومن تص
ومنها:

لا يقيم العزيز بالبلد السه
ليس ينجي موائلاً من حذارٍ
ل ولا ينفع الذليل النجاء
رأس طودٍ وحرّة رجلاء

١١ - لبيد بن ربيعة

٥١٤ ≈ ٦٦١ م

١٠٤ ق ه ≈ ٤١ ه

نشأته وحياته:

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري. نشأ ربيب الندى والبأس. فأبوه ربيعة المعترين،

١١ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٨، ٤٢، والنقائض: ص ٢٠١، ٣٨٧، ٦٦٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١٧٤، والأغاني: ٣٦١/١٥ - ٣٧٩، والمكاشرة: ص ٢٣، وسمط اللآليء: ص ١٣، وخزانة الأدب: ٣٣٧/١ - ٣٣٩، ١٧١/٤ - ١٧٥. ومعجم المؤلفين، لكحالة. ١٥٣-١٥٢/٨.

وَعَمَهُ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ فَارَسَ مُضِرًّا. وَسَبَبَ قَوْلُهُ الشَّعْرَ أَنَّ الرَّبِيعَةَ بْنَ زِيَادٍ أَمِيرَ عَيْسٍ، وَهَمَّ إِخْوَالُهُ، دَخَلَ عَلَى النُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ فَذَكَرَ بِالسُّوءِ بَنِي عَامِرٍ وَهَمَّ قَوْمَهُ. فَلَمَّا دَخَلَ الْعَامِرِيُّونَ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ غَضَّ مِنْهُمْ، وَذَوَى وَجْهَهُ عَنْهُمْ، فَنَالَ ذَلِكَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ لِبَيْدٍ يَوْمئِذٍ صَغِيرًا فَسَأَلَهُمْ أَنْ يَشْرِكُوهُ فِي أَمْرِهِمْ فَاسْتَصْغَرُوهُ. وَلَمَّا أَلْحَ فِي الْمَسْأَلَةِ أَجَابُوهُ. فَوَعَدَهُمْ أَنْ يَنْتَقِمَ لَهُمْ بِهَجَاءِ الرَّبِيعِ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنَادِمَةِ الْمَلِكِ. فَقَالُوا لَهُ: إِنْ نَبَلُوكَ. فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: تَشْتَمُ هَذِهِ الْبَقْلَةَ. وَأَمَامَهُمْ بَقْلَةٌ دَقِيقَةٌ الْقَضْبَانِ، قَلِيلَةٌ الْوَرَقِ، لاصِقَةٌ بِالْأَرْضِ، تُدْعَى الثَّرْبَةَ. فَقَالَ: «هَذِهِ التَّرْبَةُ لَا تَذْكِي نَارًا وَلَا تَوَهِّلُ دَارًا، وَلَا تَسْرُجَارًا؛ عَوْدُهَا ضَيْئِلٌ، وَخَيْرُهَا قَلِيلٌ، وَفِرْعَاهَا كَلِيلٌ أَقْبَحُ الْبَقُولِ مَرْعَى، وَأَقْصَرُهَا فِرْعَا، وَأَشْدُّهَا قَلْعًا» فَأَذْنَوْا لَهُ فَهَجَاهُ بِأَرْجُوزَةٍ مُقَدِّعَةٍ أَوْلَاهَا. مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلُ مَعَهُ الْخ.

فَنَفَرَ مِنْهُ الْمَلِكُ وَمَقْتَهُ وَطَرَدَهُ وَأَكْرَمَ الْعَامِرِيِّينَ وَأَدْنَاهُمْ. قَالُوا وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا أَشْتَهَرَ بِهِ لِبَيْدٍ. ثُمَّ أَخَذَ يَقُولُ الشَّعْرَ قِصَارَهُ وَطَوَالَهُ، حَتَّى ظَهَرَ الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّسُولِ فِي وَفْدٍ مِنْ قَوْمِهِ فَاسْتَلَمَ، وَحَفِظَ الْقُرْآنَ وَهَجَرَ الشَّعْرَ، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا وَهُوَ:
الْحَمْدُ لَهُ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى لَبِستُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالًا
وَلِذَلِكَ عُدُّ جَاهِلِيًّا وَإِنْ عَمَّرَ فِي الْإِسْلَامِ طَوِيلًا.

وَلَمَّا مُصِرَّتِ الْكُوفَةُ ذَهَبَ إِلَيْهَا فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَأَقَامَ بِهَا حَتَّى تَوَفَّى فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ مَعَاوِيَةَ سَنَةَ ٤١ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَقَدْ عَاشَ كَمَا قِيلَ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَمِائَةً حَتَّى قَالَ بِحَقِّهِ:
وَلَقَدْ سَمَّتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلْتُهَا وَسَوَّالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَيْبِدُ

شعره:

كَانَ لِبَيْدٍ ضَافِي الْجُودِ، وَافِرِ اللَّبِّ، نَبِيلِ النَّفْسِ، جَمِّ الْمَرْوَةِ، مُشَيِّعِ الْقَلْبِ. فَسَالَتْ أَخْلَاقُهُ وَعَوَاطِفُهُ فِي شَعْرِهِ، وَتَمَثَّلَتْ مَعَانِي النَّبْلِ وَالْكَرَمِ فِي فِخْرِهِ؛ وَجَاءَ نَظْمُهُ فِخْمَ الْعِبَارَةِ، مَنصُودَ اللَّفْظِ، قَلِيلَ الْحَشْوِ، مَزْدَانًا بِالْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْكَلْمِ النَّوَائِغِ. وَلَعَلَّهُ أَحْسَنَ الْجَاهِلِيِّينَ تَصَرُّفًا فِي الرِّثَاءِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى تَصْوِيرِ عَوَاطِفِ الْمَحْزُونِ الصَّابِرِ بِلَفْظِ رَائِقٍ وَأَسْلُوبِ مُؤَثِّرٍ.

وَأَمَّا مَعْلَقَتُهُ فَهِيَ قَوِيَّةُ الْأَلْفَاظِ مَتِينَةُ الْأَسْلُوبِ، تَصَوَّرَ حَيَاةَ الْبَادِيَةِ وَأَخْلَاقَ الْبَدْوِ، وَتَصَفَّ هَوَى النَّفُوسِ الْمَاجِنَةِ وَمَطْمَحَ الْقُلُوبِ الْكَبِيرَةِ.

بَدَأَهَا بِوَصْفِ الطَّلُولِ وَذَكَرَى الْحَبِيبِيَّةَ، ثُمَّ أَطَالَ فِي وَصْفِ نَاقَتِهِ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَ طَرْفَةَ، ثُمَّ مَضَى يَصِفُ حَيَاتِهِ وَمِلْدَاتِهِ وَجُودَهُ وَبَأْسَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْفَخْرِ بِقَوْمِهِ، وَكُلَّ ذَلِكَ فِي صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَقَصْدٍ.

نموذج من شعره:

قال في معلقته:

إننا إذا التقت المجامع لم يزل
ومُقَسَّم يعطي العشيرة حقها
من معشر سنت لهم آباؤهم
لا يَطْبَعون ولا يُبُور فعالمهم
فأقع بما قسم المليك فإنما
وإذا الأمانة قُسمت في معشر
فبني لنا بيتاً رفيعاً سَمَكه
وهم السعاة إذا العشيرة أفضعت
وهم ربيعٌ للمحاور فيهم

وقال يرثي أخاه إريد:

بَلينا وما تَبلى النجوم الطوالع
وقد كنت في أكناف جار مَضِينة
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا
وما الناس إلا كالديار وأهلها
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
وما المال والأهلون إلا ودائع
وما الناس إلا عاملان فعامل
فمنهم سعيد آخر بنصيبه
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

وتبقى الديارُ بعدنا والمصانعُ
ففارقتني جار بأربد نافع
فكل أمرىء يوماً به الدهر فاجع
بها يوم خلّوها وراحوا بلاقع
يَحُور رَماداً بعد إذ هو ساطع
ولا بد يوماً أن تردّ الودائع
يُتَبَّر ما يبني وآخر رافع
ومنهم شقي بالمعيشة قانع
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

١٢ - حاتم الطائي

٥٧٨ - ٥٠٠ م

٤٦ - ٥٠٠ ق هـ

نشأته وحياته:

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي توفي أبوه وهو وليد فنشأته أمه وكانت

١٢ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٦، ٤٤، والكُنَى: ص ٢٨٩، والشعر والشعراء:
ص ١٢٣ - ١٣٠، والموشح: ص ٨١، وسمط اللآليء: ص ٦٠٦ - ٦٠٧، وتهذيب ابن عساكر: =

كثيرة المال، نفاحة اليدين بالنوال، لا تليق مما تملك شيئاً، فحجر عليها إخوتها وحبسوها سنة عليها تذوق طعم البؤس، وتدرك فضل الغنى. فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أتتها امرأة من هوازن مستجدية فمئنتها إياها وقالت: مسني من الجوع ما آليت معه ألا أمنع سائلاً شيئاً.

ربته هذه الأم الوهوب، فورثته هذا الخلق وغذته بلبانه، فشب على الندى يهتز له ويغلو فيه حتى بلغ منه حد السفه. فكان وهو غلام عند جده يُخرج طعامه، فإذا وجد من يؤاكله أكل وإلا طرحه. فساء منه هذا التبذير فألحقه بالإبل، فمر به ذات يوم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والنابعة الديراني وهم في طريقهم إلى النعمان فاستقروه، فنحر لكل منهم بعيراً وهو لا يعرفهم. فلما تسموا له فرق فيهم الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة! وجاء جدّه مبتهجاً يقول له: «طوتك مجد الدهر طوق الحمامة» وحدثه بما صنع، فقال له: إذن لا أساكنك. فقال: إذن لا أبالي. ثم قال من أبيات:

وإني لعفُّ الفقير مشترك الغني وتارك شكل لا يوفقه شكلي
وأجعل مالي دون عرضي جنةً لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما ضرني أن سار سعدٌ بأهله وأفردني في الدار ليس معي أهلي

وفشا ذكر حاتم في الجود، وجرت سماحته مجرى المثل، وروي عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث. وما سبيل الرواة في أخبار حاتم في الجود إلا سبيلهم في أشعار أمية في الدين، وعنترة في الحماسة، وأبي العتاهية في الزهد، وأبي نواس في المجون: يفتعلون الشيء من ذلك لغرض من الأغراض ثم يعزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء.

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابي مظفراً. إذا قاتل غلب؛ وإذا سابق سبق، وإذا ضرب بالقдах فاز. وكان إذا أهل الشهر الأصم (رجب) - وكانت مضر تعظمه في الجاهلية - نحر كل يوم عشراً من الإبل فأطعم الناس وأجمعوا إليه.

ثم بنى حاتم علي النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من اليمن، فولد له منهما عبد الله وسفانة وعدي؛ وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما.
ولم يزل حاتم على حاله في إطعام الطعام وإنهاب المال حتى مضى لسبيله سنة ٦٠٥ م^(١).

٤٢١/٣ - ٤٢٩، وخزانة الأدب: ٤٩٤/١ - ٤٩٥، ١٦٣/٢ - ١٦٦، والأعلام. للزركلي:

١٥١/٢، ومعجم المؤلفين: ١٧٣/٣، والمراجع: ١١/٣ - ١٤.

(١) والأصح أنه توفي سنة ٥٧٨ هـ، لأن المؤرخين أرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ. راجع المصادر التي أخذنا منها الترجمة.

أخلاقه :

كان حاتم على خلق عظيم قلَّ من أوتيهِ في الجاهلية : كان طويل الصمت رقيق القلب جم المروءة لم يقتل قط واحداً أمه ، ولم يظل ضعيفاً من بني عمه :
فإنني وحدي ربُّ واحدٍ أمه أجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتي شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
وقد وصفته سفانة ابنته يوم قامت بين يدي الرسول ﷺ ترجو أن يخلي عنها وهي سيئة
قالت : كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويفرج عن المكروب ويطعم
الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط . فقال لها الرسول ﷺ يا جارية هذه صفة
المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق .

شعره :

لا جرم أن اللسان ترجمان القلب ، والشعر مرآة الشعور . وما قدمناه لك من أخلاق
حاتم تجده متمثلاً في شعره ، مؤثراً في قرْضه ؛ فلفظه سهل رقيق ، وأسلوبه به محكم وثيق ،
وغرضه سامٍ شريف ، على غير ما نعهد في شعراء البادية . ولذلك قال ابن الأعرابي : «جوده
يشبه شعره» ومعنى ما يقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة في باب الجود
والعذل فيه ، وجمال الذكر والحرص عليه . وما ترى من التفاوت في شعره إنما يرجع إلى
كثرة المدسوس عليه والمنسوب زوراً إليه ، وهو من شعراء الطبقة الثانية . وقد جمع شعره في
ديوان وطبع بليدن وبيروت .

نموذج من شعره :

قال من قصيدة له :

أماويٌّ إن المال غادٍ ورائح
أماويٌّ إما مانعٌ فمبيِّنُ
أماويٌّ ما يغني الثراء عن الفتى
أماويٌّ إن يصبغُ صداي بقفرة
تَرى أن ما أنفقت لم يكِ ضرنِي
أماويٌّ إن المالَ إمَّا بذلتَه
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتمًا
وقال أيضاً :
تَحلم عن الأذنين وأستبقِ ودَّهم
ولن تستطيع الحلم حتى تحلما

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن
 أين في الذي تهوى التلاد فإنه
 قليلاً به ما يحمدنك وارث
 متى ترق أضغان العشيرة بالأدنى
 وعوراء قد عرضت عنها فلم تضر
 وأغفر عوراء الكريم أدخاره
 ولن يكسب الصعلوك مجداً ولا غنى
 لحا الله صعلوكاً مناه وهمه
 ومن معانيه الجميلة قوله:
 إذا كان بعض المال ربا لأهله
 فإني بحمد الله مالي معبد

١٣ - أمية بن أبي الصلت

١٠٠٠ - ٦٢٦ م

١٠٠٠ - ٥ هـ

نشأته وحياته:

أبو عثمان أمية بن أبي الصلت الثقفي كان يمارس التجارة طوال عمره، فتارة إلى الشام وتارة إلى اليمن. وكان مفطوراً على التدين، فلقي في بعض أسفاره بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فالتمس الدين ولبس المسوح وحرم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة، وقال في دين إبراهيم.

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

فلما بعث الرسول ﷺ سقط في يده وكفر به حسداً وقال: إنما كنت أرجو أن أكونه. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١). ثم أخذ يحرض على الرسول ويرثي قتلى أعدائه في واقعة بدر، فنهى عن رواية شعره في ذلك. وكان إذا سمع الرسول شعره في التوحيد يقول: آمن لسانه وكفر قلبه. ثم فر أمية بأبنته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فعلقته هناك أوهاق المنية. وقد قال لما

١٣ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٣٣، وطبقات فحول الشعراء: ص ٢٢٠ - ٢٢٤، والكنى: ص ٢٨٩، والأغاني: ١٢٠/٤ - ١٣٣، ٣٢٧/٨ - ٣٣٣، وسط اللآليء: ص ٣٦٢ - ٣٦٣، وتهذيب ابن عساکر: ١١٥/٣ - ١٢٨. والمراجع: ٦٣/٢ - ٦٧، ودائرة المعارف الإسلامية: ١٠٨٠/٤ - ١٠٨١.

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧٥.

أخذته غشية الموت وأفاق منها: لييكما لبيكما! هأنذا لديكما لا مال يفديني، ولا عشيرة تنجيني! إن تغفر اللهم تغفر جمأً، وأيُّ عبد لك لا ألما؟ ثم أقبل على من حضر وقال:
 كل عيش وإن تطاول دهرأً منتهى أمره إلسى أن يزولا
 ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤس الجبال أرعى الوعولا
 اجعل الموت نضب عينيك وأحذر غولة الدهر، إن للدهر عولا
 وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة.

شعره:

انصرفت قريحة أمية إلى المعاني الدينية فأشتهر بها أمره، وأصطبغ بها شعره، فوصف الله وجلاله، وذكر الحشر وأهواله، ونعت الجنة والنار والملائكة، ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم وقصة اسحاق وإبراهيم، وأدخل في الشعر معاني وأساليب، وفي اللغة ألفاظاً وتراكيب، لم يألفها الشعراء ولم يعرفها العرب بعض ذلك من العبرية وبعضه من محدثاته فكان يسمى الله عز اسمه فالسُّلطيط والتغرور، والسماء بالصاقورة والحاقورة، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهور؛ ولذلك كان اللغويون لا يحتجون بشعره.

ومذهب ابن أبي الصلت في شعره لم يعهد في عصره، فنحله العلماء ما جاء على شاكلته ولم يعرفوا قائله. ورواة الشعر يعدونه في الطبقة الأولى، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا يؤيد هذا الرأي، فإن أكثره قلق اللفظ سخيف النسيج نابي القافية، إلا أن يكون الزمان قد عفى على أحوده. فقد قال الحجاج على المنبر: «ذهب قوم يعرفون شعر أمية، وكذلك اندراس الكلام».

نموذج من شعره:

قال يعاتب ابناً له كان قد عقه:
 غذوتك مولوداً ومُتتكَ يافعاً
 إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت
 كأنني أنا المطروق دونك بالذي
 تخاف الردى نفسي عليك وإنني
 فلما بلغت السن والغاية التي
 جعلت جزائي غلظة وفضاظة،

ومن قوله:

الحمد لله مُمَّسانا ومُصَبِّحنا
 بالحمد صبَّحنا ربي ومَّسانا

رب الحنيفة لم تنفذ خزائنه مملوءة، طبَّق الأفاق سلطانا
ألا نبي لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف يلحق أحرانا بأولانا

نشأة الخط في بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة. لذلك كان أسبق الأمم إليه المصريون والفينيقيون. وأجهل الناس به البدويون، فلم يعرفه العرب إلا في الجهة التي عرفتها الحضارة وأرتقت فيها العمارة وهي اليمن. كان اليمنيون يستعملون خطأ يسمونه المسند بأسم لغتهم، يكتبونه حروفاً منفصلة ويزعمون أن الوحي نزل على كاتب هود. ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقي مصدر الخطوط السامية، وأن الآرامي والمسند بأنواعه مشتقان منه، ومن الآرامي اشتق الخط النبطي في حوران، والسطر نحيلي السرياني في العراق، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربي، فمن الأول تولد الشكل النسخي، ومن الثاني تولد الشكل الكوفي، وكان يعرف قبل الإسلام بالحيروي نسبة إلى الحيرة. وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام، وتعلموا الآخر من الأنبار: تعلمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل؛ وخرج إلى مكة فصاهر حرب بن أمية جد معاوية، فعلمه جماعة من القرشيين فكثرت من يكتبه منهم. ولما مُصِّرت الكوفة وشاع استعماله في الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شيء من النظام والزخرف فسمي بالكوفي.

